المكتبة الثقافية

موقف الإسلام من الفنون

محمد عبد الواحد حجازى



المكتبة الثقافية

٣٨٠





الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٤

مقدمة

الفن الاسلامي
رسالة عالمية

منذ بداية الانقلاب الصناعي الذى حدث فى أوربا فى القرن التاسع عشر والعالم يسير بخطا واسعة بل ويقفز قفزات خطرة فى ميادين العلم والكشوف والاختراعات ·· وكذلك في مجالات الصناعة والتجارة ·· وأخذت الكشوف والاختراعات العلمية فى اندفاعهـا العنيف السريع الذى لم يتوقف ولن يتوقف ، حتى أصبح العالم اليوم وهو يعيش عصرا من الازدهار الصناعى والعلمى لم يسبق ى عصر من العصور السابقة أو لأية أمة من أمم الحضارات الشامخة أن شهدت نظيره من قبل ··

وانه لعصر حقق فيه الانسان باختراعاته ما لم يكن يحلم به أو يتخيله أو تصوره له أساطير الجن وشطحات آلهة الوثنية ·

لقد حقق الانسان باختراعاته وكشوفه أساليب وآلات وأدوات زادت من رخائه ورفاهيته بل وأطالت من عمره فهو يعيش اليوم عمرا أطول ممن سبقوه ويستمتع بالدنيا ويعمرها أكثر مما عمرها واستمتع بها من سبقوه .. لقد أثارت فيه ـ أى الكشوف العلمية والاختراعات الحديثة ـ الرغبة الحادة والأمل المتحرر من كل قيد فى أن يشبع رغباته الى أقصى ما يستطيع ـ ولو هلك فى سبيلها ـ وأن يتطلع الى المستقبل الى أقصى ما تثيره رغباته من شطحات وخيالات .

فهل كان لكل ذلك أثره فى حياة الانسان فيكون عصرا من ازدهار الأمن والطمأنينة والسلام والرخاء لشعوب العالمين التى طالما شقيت بالحروب أو أشقاها زعماؤها وقادتها بالحروب ؟

لقد عاش العالم حربين عالميتين (١٩١٤ ـ ١٩٣٩) . كانتا وبالا عليه وعلى ما شادته الشعوب وأنشأته من حضارات لها أفكارها وثقافاتها وأخلاقياتها .. ولها أمانيها فى اليوم والغد والحياة بأسرها .

كانتا وبالا عليه وان كانت الثانية أشدهما هولا وأخطرهما نذيرا للبشرية ومستقبلها بسبب الأسلحة الحديثة التى بلغت رعيب تطورها فى القنبلة الذرية تلك التى وضعت خاتمة الحرب العالمية الثانية وحسمت الموقف نهائيا .

واذا كانت النزعة الاستعمارية التى خلقتها وسعرت ضراوتها الكشوف الجغرافية العلمية والانقلاب الصناعى ، من الأسباب الرئيسية للحربين العالميتين ، الا أن هـــذه النزعة فى ذاتها كانت محنة العالم كله : للمســـتعمرين وشعوبهم .. وللشعوب التى غلبها الاستعمار على أمرها ورصـــد مقوماتها الاقتصـــادية وثرواتهـــا الطبيعية لخدمة أهدافه التى كان يؤامر دائما على تنفيذها بشتى سبل التآمر وأنواع التخريب .

كانت محنة للشـــعوب الأوربية ذاتهـــا لأن نزعة حكوماتها الى المغامرة الاســـتعمارية وان حققت ثراء وقوة ورخاء ونهضة علمية ، الا أنه بسبب التنافس الانتحارى بينها وجدت الشعوب نفسها وقد جند شبابها واقتصادها وكل مقومات حضـــارتهـــا أو مدنيتهـــا لخوض الحربين العالميتين .

ولئن كانت للحكومات حجتها فى دفع شـــعوبها الى خوض الحرب العالمية الثـــانية بســـبب العقيدة العنصرية الاســـتعمارية التى دبرها النازى وأعدها لغزو العـــالم كله واخضـــاعه لســـيطرته أودكتاتوريته الرهيبة الا أن ذلك لا يمنعنا من أن نقرر أن النزعة الاســـتعمارية التى سرت عدواها وتفشت بلواها بين الدول الأوربية كانت علة شقاء شـــعوبها لخوضها غمار معاركها الشرسة كمـــا كانت علة شـــقائها من جانب لا يقل عن المعارك العســـكرية شراســـة

وخطرا ٠٠ ذلك أن التماسك الاجتماعى الذى كان يتميز به المجتمع الغربى بدأ يهتز ويترنح ، ومن ثم كان أن حدث تفسخ وتمزق بين عناصر البناء بسبب ما شاع فيه من تدهور وانحلال بدرجة أصبحت تهدده بالضياع ٠

وعلى ذلك يمكننا أن نقول : انه بسبب الحرب العالمية الثانية وما جرى فيها وما انتهت اليه ، بدأت الشعوب بأجيالها تفقد الثقة فى ميراثها من القيم الأخلاقية والتقاليد الاجتماعية ، وتفقد كذلك ثقتها فى الدين من ناحية أهدافه ووسائله ٠٠ يضاف الى ذلك محنة النظم السياسية الأوربية العتيدة فيما كان لها من حق آلهى متوارث كانت له أصداؤه وتقاليده الراسخة فى البناء الاجتماعى للشعوب الأوربية فان ما أصيبت به تلك النظم من جراء الحروب التى شنتها الدول على بعضها البعض مما غير كثيرا من الخريطة السياسية لأوربا ٠٠ ومن قبل هذا بسبب الهزة العنيفة التى أصابتها جميعا من الثورة الفرنسية ، تلك الهزة التى كانت لها أصداؤها العميقة فى نفوس الحاكمين والمحكومين على حد سواء ٠

كان لذلك كله انطباعاته وآثاره فى نفوس المجتمعات الأوربية على اختلاف حظوظها من الثقافة والفكر والمرتبة الاجتماعية والتقاليد التى تتمسك بها وتحترمها ، آثاره من حيث موقف هذه المجتمعات من التقاليد الاجتماعية

والقيم الأخلاقية التى ارتفعت فى ضميرها وسلوكها الى حد التقديس ٠

وكذلك من حيث نظرتها الى حاضرها الذى تقاسيه ونظرتها الى المستقبل الذى يحيرها ويخيفها فى آن واحد ، وان كانت تتمنى أن يكون خيرا من ماضيها ٠

وفى العدوة الأخرى كان الشرق الماجد العتيد يعانى من الاستعمار أشد ضروب القهر والاستغلال والاستعباد ٠٠ تلك التى مارستها الدول الغربية تظاهرها جيوشها وتمهد لها بالمؤامرات والدعاوى الملفقة ٠٠ كانت الدول الاستعمارية تضرب بتلك الأسلحة المتنوعة شعوب الشرق لتتمكن من احكام خططها فى استنزاف خيراتها وثرواتها واستنزاف قواها بما يوهن ارادتها ويحطم قدرتها فلا يبقى لها أمل فى التخلص من الأغلال التى قيدتها ٠

ومن ثم فان الأمم الشرقية التى وطئها الاستعمار الغربى كانت تعانى محنة ذات ثلاث شعب :

١ ـ محنة احتلال أرضها

٢ ـ محنة الوصاية على مستقبلها الحضارى

٣ ـ محنة الفتنة الأخلاقية التى أوقعها فيها الغرب بما نقله اليها اما مباشرة أو غير مباشرة من الأساليب

المعاشية ومن الأسـاليب الفكرية والثقافية التى تخالف ثقافة تلك الشعوب وفكرها مخالفة أخلاقية ·

فهى من ثم بذور أفساد وتضليل وانحلال وأن غلفت فى أردية من المنطق الـذى أن لم يغر بالاقنـاع والأخـذ بما يشير فلا أقل من أنه يوقع المستمعين اليه والمشاهدين له فى بلية الشك واساءة الظن بتراثهم الأخلاقى من حيث قيمته وجدواه فى الحياة ·

ومع نهاية الحرب العالمية الثانية ظهرت الانتفاضات التحررية بين الشعوب الشرقية فقامت بثوراتها لتتحرر من السيطرة الاستعمارية وتسـتقل بارادتها وحريتها فى وطنها وعلى أرضها فتصبح مقاليده ومصيره بيدها وحدها ·· ولم يكن من السهل على تلك الشعوب الثائرة التى نجحت ثوراتها أن تحتفظ باستقلالها السياسى والاقتصادى خالصا من تدخل الدول الاستعمارية ·· ولكنها اصطدمت بابتلاء جديد ، هو ابتلاء مقاومة التآمر الاستعمارى الذى أخذ يتزيا بأزياء سياسية جديدة ويختلق من المبررات ما يمكنه من أن يعيد سيطرته أو تدخله فى شـئون هذا الشعب أو ذاك ولو من بعيد ··

فان لم يستطع فالمؤامرات كفيلة ببث بذور الفتنة والشقاق بين قادة الأمة وزعمائها وبين طبقات الشعب

وطوائفة مما قد يمكنه من أن يعيـد الأمة الى دائرة فلكه الاستعمارى ..

وفى خضم تلك الصراعات الدولية والعالمية من ثورات شعبية وأفكار تحررية ومذاهب سياسية وعقائدية جديدة ..وما واكب ذلك من تفجر العـلم التطبيقى بفيض من الاختراعات والانشاءات الصناعية فى كافة مجالات الظواهر الحضارية أن أصبح العالم كله اليوم يعيش حربا جديدة ـ وان لم تعـلن فتكون عالمية ـ هى حـرب المـذاهب الاجتماعية ، أو حرب الأيدولوجيات ـ والجديد فى هذه الحرب أنها تصطنع من الفكر الانسانى والقيم الانسانية، كما تصطنع من التآمر وبث فتن الصراعات الاجتماعية وذلك بتأليب طبقة على طبقة أو طائفة على طائفة أو زعامة على زعامة ، أسلحة استعمارية حديثة تبسط لها سيطرتها على شـعب أو مجموعة من الشـعوب بدعوى المناصرة السياسية أو المناصرة الاقتصادية أو المحافظة على المصالح الاستراتيجية .. أن تستعين فى حربها بأحدث الأسلحة وأشدها فتكا من أجل مناصرة رجالها وشد أسرهم ثم **تحقيق أهدافها من خلالهم عندما تضعهم فى قمة السلطة المتحكمة ..**

وكانت النتيجة لكل تلك الصراعات أن نشبت فى نفس الانسان ـ وفى البناء الاجتماعى بالضرورة ـ فتنة كبرى اذ فقدت المبادىء الاخلاقية سواء أكانت دينية أم

اجتماعية ، وهى التى تكفل الاستقرار النفسى للأفراد والجماعات ثقلها وقيمتها فى الضمير ·· ومن هنا فقد أصبح الانسان يعتقد أن من حقه أن يترك نفسه على سجيتها وحريتها فيطلق لنزعاته الحرية فى أن تفعل ما تشاء وتشتهى ما تشاء ·· ولقد وقر فى نفسه أنه بسلوكه هذا لا يعبر عن هوى طارىء أو نزعة جامحة ولكنه ـ وهنا موطن الخطر ـ يعبر بعمله وفكره وتفضيله عن ثورة أخلاقية أصيلة من حقها الذى لا يستطيع أن يمارى فيه أحد أن تثبت وجودها وأن تؤكد حقها فى الحياة بالوسيلة التى تجد أنها أكثر تعبيرا وأسرع تحقيقا لما تهدف اليه وتتوخاه ·

ومما سبق يمكننا أن نلخص العلل التى كانت السبب فى اضرام وتسعير الثورة على القيم الأخلاقية والاجتماعية وزيادة عنفها على الوجه الآتى :

أولا : الازدهار الصناعى متمثلا فى مخترعات الترف والمتعة التى نوعت فى أساليب فنون التعبير عن نزعات الانسان ونزواته وعن قلقه وحيرته ·

ثانيا : التخطيط الصهيونى الشيوعى الاستعمارى (الصليبى) ، لافساد الشباب جسميا ونفسيا وعقائديا وفكريا بواجهات عقائدية تحررية جند لها كل الوسائل التعبيرية من فنون وثقافات ··

ثالثا : اخفاق السياسة التربوية فى تنشئة جيل مقتنع بالقيم الأخلاقية والانسانية والاجتماعية ومن ثم فقد أخفقت هذه فى مواكبة ومؤازرة الازدهار الحضارى الحديث وأخفقت بالتالى فى تلبية تطلعات الشباب الثائر النافر ..

رابعا : عدم التزام قادة الأمم وزعمائها بتلك القيم ، ولعل الحروب المحلية التى أصبحت تشن أو تتفجر فى بقاع متفرقات من الأرض وما يمهد لها به أو ما يصحبها من دعايات المذاهب الاجتماعية والسياسية التى تزيف الحقائق على الشعوب والعالم كله .. لعلها أوضح دليل وأكبر دليل على ذلك ..

وبين صخب الازدهار الصناعى وما أبدعه من وسائل الترف وبواعث المتعة ..

ووسط ضجيج الحروب المتفجرة وقصفها القاتم الرعيب ..

ومن خلال الأصوات الثائرة على الخارجين على التقاليد والآداب المحمودة ...

وكذلك من خلال أصوات أولئك المحتجين الثائرين على البالى العتيق من القيم الأخلاقية والتقاليد الاجتماعية ..

من خـلال ذلك الرهج الثائر المختلط حتى أن المـرء أصبح وهو لا يستطيع أن يميز بين الصواب والخطأ ، وبين الهدى والضـلال فبذلك تخرج دلالة واحدة أو تسـاؤل واحد وكأن الجميع ينطق به فى لحظة واحدة •• وهو :

لماذا الاحتجاج ؟!

لماذا الاحتجاج على الأخذ بأسباب الحياة الحديثة وما فيها من متعة ونعيم ؟

لماذا الاحتجاج على القيم الحديثة والسلوك الحديث الذى نجسده أو يتجسد لنا فى الفنـون •• التي هى اليـوم خير تعبير عما فى صدورنا من آمال وأحلام ، والتى هى أنضر تعبير وأجمله وأعمقه عن حريتنا وارادتنا ودوافعنا الحرة ؟!

فان قيل لهم : نحن لا نعيب عليكم أخذكم بفنون المتعـة والتسـلية التى تعمق الحيـاة فى النفوس والتى تعين الانسـان على الحياة •• ليس احتجاجنا على الفنون فى ذاتها أو عليكم فى ذاتكم ، ولكن على ما تقدمه الفنون ••

ان ما تقدمه هو فى جملته حرام ، حرام لا يخدمكم لو أحسنتم النظر وأصبتم فى التقدير ولا يخدم مجتمعاتكم ولا الناس أجمعين لو نظرتم نظرة أشمل وأوسع ••

وربما كان جوابهم : فماذا نفعل وهذا هو ما يقدم لنا ويعرض علينا ؟

هلا خاطبتم وعاتبتم وزجرتم أولئك الذين يؤلفون ويقدمون ؟

هلا بصد نموهم بما هو حلال وما هو حرام ؟

هلا وضعتم لهم المعايير أو الموازين التى يضبطون بها فنونهم ويراقبونها مراقبة ذاتية عند الابداع والانشاء ومراقبة موضوعية العرض والتقديم ؟

ان التشريب علينا فى كل شيء ليس من الحكمة فى شيء ..

وما كان المسلمون بعيدين عن هذه الفتنة ، بل كانت أوطانهم هى مواطن الابتلاء والمحن التى قصدها الاستعمار بجيوشه وثقافته وقصدتها الصهيونية والشيوعية بتآمرها ومكائدها لاضعاف قوة المسلمين وازالة وجودهم .. ولذلك فاننا نجد الأصداء التى ذكرناها متمثلة فى المجتمع الاسلامى تتجاوب بها أركانه من أقصاه الى أقصاه .. وهى الاجتراء على القيم الأخلاقية وفقدان الثقة فيها .. والاقبال فى نهم شهوانى على الفنون لا سيما تلك التى تشبع فيهم نزعاتهم الفطرية .. وتكون بما تعرضه خير تعبير عن نفوس ثائرة وخائرة معا ..

انهم يثورون فى تهجم واجتراء على المحتجين عليهم باسم الدين أو المبادىء الأخلاقية وكأنهم فى احتجاجهم

واجترائهم يقولون : اقنعونا فنيا بمـا يبصرنا بالحلال والحرام ٠٠ وقدموا لنا الفنون وهى ملتزمة بمعايير الحلال والحرام ٠٠ راقبوا فنونكم قبل أن تراقبونا ٠٠ وزنوا أعمالكم قبل أن تزنوها علينـــا ، بشرط ألا تميتوا فى نفوسنا فطرة الحياة ٠٠

ومن هنا فاننا نخطىء غاية الخطأ اذا اصطنعنا من مبادىء الاسلام أسلحة دفاعية فحسب ندفع بها عنه تهمة انكاره للفنون وتعطيله أو مهاجمته لهـا ٠٠ ولكن ينبغى أن يكون عملنا ابداع وخلق « فن اسلامى » ، تتجسد فيه حيوية الاسلام من حيث محتواه ومضمونه لا أن يكون مجرد واجهة تزينية كتلك التى تميز العمائر الاسلامية ٠

ولذلك فانه لأساس جوهرى لابداع فن اسلامى أن يكون العمل فيه على مراعاة مبدأين ضروريين وهما :

أولا : أن الاســـلام رســـالة انسانية عالمية فلابد من أن تتسامى فنونه الى المستوى العالمى لاســيما وأن المحنــة عالمية ، يقول ســـبحانه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (١١٠ سورة آل عمران) ٠

ثانيا : أن الأمة الاســـلامية هى أمة الريادة العقائدية والفكرية والانسانية للبشرية كلها ٠٠ وانها لريادة لا تعرف الجموح أو التطرف الغرائزى ٠٠ ولاتعرف

التعالى التعصبى العقيم ٠٠ ولكنها قصد السبيل ٠٠ فعلى الفنون الاسلامية اذن أن ترتفع الى مستوى الريادة المعتدلة فى تصوير القيم الانسانية وتصوير أشواق الفطرة وآمال الانســـان وآلامه ؛ يقول سبحانه : « **وكذلك جعلناكم أمة وســطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** » **(٤٣ سورة البقرة) ٠٠**

وبناء على هذين المبــدأين فانه يجب لانشـــاء فن اســـلامى أن يكون محققـا وملتزما فى ابداعه بقيمتين اسلاميتين انسانيتين وهما :

١ ـ تبين أوجه الحلال وأوجه الحرام ٠

٢ ـ تحديد الموازين التى تحكم الرقابة الذاتية فى حالة الابداع الفنى والرقابة الموضوعية فى حالة صناعة الأثر الفنى واخراجه ٠

وهاتان القيمتان هما اللتان جعلناهما مدخلا لانشاء فن اسلامى ٠٠ فعسانا أن نكون قد وفقنا فى الاختيـــار والعرض ٠٠

هدانا الله جميعا سواء السبيل ؟

محمد عبد الواحد حجازى

الفصل الأول

الحلال والحرام
فى عالم الفن

الاحساس بالجمال .. مدخل الفنون

الانسان عقيدة .. سيان عند العقل والوجدان .

فالعقيدة هى التى تعطى الانسان مقومات شخصيته والوعى الذى به تحقق الشخصية كيانها معبرة عن غايتها من الوجود وغايتها فى الوجود ..

وعلى هذا فاننى أعتقد أن العقائد تتفاضل بمقدار ما فيها من شمول قوى متفتح لكل شأن من شئون الناس مهما تخالفت الأزمان والمراتب والأوطان . فالعقيدة التى تعطى الفطرة الانسانية حقها فى كل نواحى الحياة ، غير العقيدة التي تحجر على الفطرة فتصدها صدا زريا أو عسوفا يذل ويوهن ولا يورث غير الخنوع والصدوف عن الحياة الدنيا ، فتلك عقيدة قاصرة متعسفة وان أخرجت من روائع العبقرية ما تزدهى به على الزمان .

فالعبرة بما تعطى العقيدة للانسان : فى الفكر ومجالات التفكير والتأمل .. فى العمل ومجالات العمل

ومشكلات العاملين ·· فى شواغل الوجدان وما يريحه ويسعده ويخفف عنه ··

اذا وجدت العقيدة التى تفيض على الانسان بهذا الفيض العميم وتعطيه استقرارا ويقينا ونفسا راضية مستبشرة ، فهى العقيدة التى تخلق الاحساس بالجمال خلقا في نفس الانسا ن·· وهى العقيدة التى تخلق الوعى بالحلال والحرام خلقا فى ضمير الانسان وكأنه فطرة أصيلة فيه ··

وانها لعقيدة التوحيد التى جاء بها القرآن المجيد ·

وان كلمة التوحيد اذ تأخذ بيد البصيرة الانسانية تهديها الصراط المستقيم انما تأخذ بيدها الى مجال الحق والخير والجمال : فى السماء والأرض والنفس ·· انها ـ أى كلمة التوحيد ـ تربية للذوق والوعى على الاحساس بكل ما هو جميل مونق يسبى الأفئدة ويفتن النواظر ·· وانها أيضا تثبيت للارادة باليقين الثابت بعد اجتياز ابتلاء الفتنة والتمحيص ؛ قال تعالى : « **انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا** » (٧ سورة **الكهف**) ··

ان التجربة التى يدخل الاسلام فيها الانسان تجربة فريدة فى نوعها ·· انه يستجيش احساسه بالجمال ليعيش مع الوجود لحظات من التأمل والتقرب والأنس لكى يأتنس بعدها بربه الكريم ·

ان التجربة الاسلامية هى تجربة التذوق الجمالى فى أعلى صوره وأسماها جميعا ... انها تنادى الانسان أن يحيا فكرا واحساسا فى زينة مع الزينة والجمال والفن عملا بقوله ، وتسبيحا بحمده ودعاء لرحمته .

ومن خلال الفكر والاحساس والعمل والتسبيح والدعاء يتكون الضمير الذى يفرق بين الحلال والحرام فى عالم الجمال والفن .. فيسفر له طريق الحق نهجا لاعوج فيه ولا أمتا .. ولكنه الهدى والرشاد والتوفيق والسداد ..

يقول سبحانه : « **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » (١٤ سورة آل عمران)** ..

فى هذه الآية الكريمة تجتمع أهواء النفس ورغباتها فى ثلاث رئيسية يتفرع عليها جل الرغائب البشرية بعد ذلك ، وهى : **المرأة ، والولد ، والمال** ..

وقد أتت بها الآية الكريمة على هذا النسق المعجز الذى يكشف حقيقة الدوافع الفطرية .. فهى تبدأ بكلمة : **« زين » وبناء هذه الكلمة للمجهول يؤكد أمورا ثلاثة هى :**

أولا : أن الزينة قدر من الله .

ثانيا : أنها راسخة فى سواء الكيان البشرى ٠

ثالثا : أنها أساس الاحساس بالجمال الذى هــو أساس الابداع فى الفنون ٠

ذلك أن التزيين هو التجميل فى الاحساس الذاتى للفرد ٠٠ أى أن الاحساس بالجمال قد هيىء فى الطبيعة البشرية فاذا أحست فانما تحس عن جمال لأنهــا تنشده ابتداء ٠٠ واذا رأت فانما تتوق الى أن يقـــع البصر على ما يشبع الشعور الباطنى الغامر ٠

ثم تأتى : « الناس » ، لتقرر أن التزيين انما خلق للبشرية كلها فالناس سواء فى الاحساس الفطرى بالجمال فليس فيه طبقية ولا عنصرية ولا احتكار ٠٠

وعلى هذا المنهاج جاءت تربية القرآن لوجدان الانسان تربية على الاحساس بالجمال وتكوين الاستعداد الفطرى للابداع فى الفنون ٠٠

ومن مجالات تربية الاحساس بالجمال مجال الأسرة :

فالاســـلام حين أمر بالزواج وامتدحه وحض عليه لم ينس هوى النفوس وحبها الفطرى للجمال ٠٠ فشىء طبيعى أن يحب الرجل المرأة ؛ ولكنه يفضل الجميلة ولهذا فـــان الاسلام استحب أن ينظر الى المرأة ليعرف ما اذا كان يحس فى طلعتها اقبالا وشـــوقا أم لا ؛ ولذلك قال رســـول الله صلى الله عليه وسلم : « **اذا أوقع الله فى نفس أحدكم من**

امرأة فلينظر اليها فانه أحرى أن يؤدم بينهما » ، **أى يؤلف بينهما ••**

ويعطى رسول الله للجمال حقه فيقول : « **خير النساء أحسنهن وجوها وأرخصهن مهورا** » •

فالاسلام حريص على توفير طلبة الفطرة •• ولكنه حريص أيضا على ألا يكون الجمال وحده هو الغاية ؛ لأنه اذا كان جمال المرأة هو وحده العروة التى تربط بين الزوجين فان كيان الأسرة يكون عرضة لأعاصير شتى تهدده بالتقوض والدثور •• فللجمال الجسدى دلاله المدل بذاته ، فحتى لا ينقلب الى نزوة جسدية خالصة فان الاسلام يعلو به بما يهذبه ويزكيه ••

ولا يهذبه ويزكيه سوى التمسك بالدين والاهتداء به ؛ يقول صلى الله عليه وسلم : « **لا تنكح المرأة لجمالها فلعل جمالها يرديها ، ولا لمالها فلعل مالها يطغيها وانكح المرأة لدينها** » •

أما من ناحية « الجمال الشخصى » كما يقال عادة فان الاسلام يربى المسلم على مراعاة نظافته ووجاهته ومظاهر جماله ، قال تعالى : « **يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد** » (**٣١ سورة الأعراف**) ••

ولقد كان عليه السلام بهيا فى طلعته ، جميلا فى شمائله ، جميلا فى هيئته وزينته لا ارضاء لمطالب الجسد وأشواق النفس ، ولكن هكذا يجب أن يكون المسلم دائما

لا يحيا الا فى جمال ولا يحس الا باحساس الجمال ولا يرى الناس منه غير ما هو جميل تعبدا وتقربا لرب الجمال ..

روى مكحول عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت :

« كان نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه على الباب فخرج يريدهم وفى الداركوة فيها ماء فجعل ينظر الى الماء ويسوى لحيته وشعره .. **فقلت :** يا رسول الله وأنت تفعل هذا ؟ **قال** : نعم ، اذا خرج الرجل الى اخوانه فليهيىء من نفسه فان الله جميل يحب الجمال » ..

والاسلام فى نظرته الى جمال المرأة لا يحرمها من متعتها فى الحياة ؛ فهو يرخص لها فى اطار الفطرة التى خلقت عليها ولكنه لا يترخص معها ولا مع الرجل فيما للفطرة من حقوق .. انه يعطيها حاجتها فى أناة وتمهل وحدب .. ويعلمها كيف تأخذ الحياة مأخذ الجد وكيف تتناول الحياة تناول القدرة القادرة الملتزمة بأعباء المسئولية ؛ يقول سبحانه : « **وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله** » (**٣٣ سورة الأحزاب**) ..

فالتبرج مباح غير محظور الا أن يكون كتبرج الجاهلية فيه تخرج الزينة عن حدودها وتصبح تهتكا ومجونا وخلاعة أقرب الى الانحلال البذىء الذى تستباح فيه الحرمات الأخلاقية والاجتماعية ، فلا وازع من ضمير

أو خلق أو حياء يثور على الضعف والفوضى والاضمحلال ٠

ويقدم القرآن منهاجه لتهذيب نفس المرأة حتى يكون لأحاسيسها الجمالية عمقا راسخا فى الوجدان المؤمن والعقل البصير ٠٠ وانه لتبصرة للنفس من اغواء النفس وما قد يعتورها من انطلاق الأهواء ، يقول سبحانه : **« وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » (٣١ سورة النور) ٠٠**

ولتربية الاحساس بجمال الكون فقد أشار القرآن الكريم الى زينة السماء كآية من آيات الله ودليل على عظيم قدرته وبديع صنعه فقال سبحانه : **« ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين » (٥ سورة الملك وقال سبحانه : « انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » (٦ سورة الصافات) ٠٠**

ونجد من الآيتين الكريمتين دلائل الاعجاز القرآنى فى البيان والعلم واضحة دقيقة لا تحتاج الى تأويل أو

تمحل من المتأولين . فالسماء لا تبدو زينتها نيارا انما تظهر الزينة ليلا .. ففي الليل تكون السماء متلألئة بأضوائها المنثورة على صفحتها فى نسق فريد لا يرهق البصر ولا يكد الاحساس طول التأمل فيها بل يكتشف بمداومة التطلع أشكالا جمالية جديدة تغذى العقل وترتقى بالتأمل . ثم نهبط الى الأرض مسرح الاستخلاص والمكان الذى أعدله كل ما يخلق منه موطنا صالحا للانسان .. نهبط الى الأرض موطن الجمال الذى تملاه الانسان فى كل زمان وتغنى به رسما ونظما ولحنا ..

ان الحق سبحانه حين خلق الأرض فقد أغناها بكل ما يغنى بصر الانسان متعة بالجمال .. وبكل ما يثرى عقله وخياله وفكره ، بل وبما يغنى جسده من شهوات الحياة فقال سبحانه : « **انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا** » (**٧ سورة الكهف**) ..

ويقدم القرآن تربية للاحساس بالجمال عند الانسان وصورا مما تعمر به الأرض من آفاق الزينة والبهاء ؛ فيقول سبحانه : « **وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** » (**٩٩ سورة الأنعام**) ..

ان القرآن الكريم يعرض آيات الله على الوجـــدان والخيال ويعرضه على الفكر والعقل ·· ويعرضه على اليقين والايمان وهو يعلم حقيقة الفطرة الانسانية فى دوافعهـا وحقيقة الاحساس بالجمال وما ينميه وينقيه ··

وعلى هذا الأساس جاءت تربية القرآن للاحســاس بالجمال عند الانسان تربية لم تعرفها مذاهب الفلاسفـة ولا طرائق علماء النفس والاجتماع ·· فالقرآن يفرق بين المنفعة الخالصة ، قال تعالى : « **والأنعام خلقها لكم فيهـا دفء ومنافع** » (٥ سورة النحل) ··· **وبين الجمال الذى يجده الانسان في المنفعة ؛ قال تعالى** : « **ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون** » (٦ سورة النحل) ··

وليس هذا فحسب فالقرآن يفرق بين النفع والزينة ؛ قال تعالى : « **والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون** » (٨ سروة النحــل) ·· وان فى قولــه تعالى : « **ويخلق ما لا تعلمون** » ، تربية للاحساس بالجمال والتذوق الفنى وارتفاع فوق الواقع تشوفا الى المستقبـل وبذلك لا يضل المرء لأنه قد عصم من أول الأمر بالايمان بالله ·

لكن الله سبحانه يعلم أن للفطرة الانسانية ضعفها وتقصيرها وأن الوجود بجماله وزينته كفيل بأن يغريها ، وكفيل بأن يكبلها بملذاته وشهواته ، وأن المصير الانسانى

لا يستقيم حضاريا ما لم توجد ضوابط تكفل للدوافع الفطرية للانسان الاشباع والامتاع بغير اسفاف أو انحلال ٠٠ وتكفل للعقل رحابا من العلم يجتبى منها ما يشاء بغير أن يفتتن بفتنة الكفران فيقول : « **انما أوتيته على علم عندى** » (**٧٨ سورة القصص**) ٠٠ وتكفل للفكر أعلى درجات التأمل والتيقن فلا يرتد ارتداد الجاهلية التى قالت : « **انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون** » (**٢٢ سورة الزخرف**) ٠٠

والضوابط ثلاثة هي : الايمان بالله ، والعمل بشريعته ، والأمل في ثوابه ؛ قال تعالى : « **والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا** » (**٤٦ سورة الكهف**) ٠٠

ولهذا جاء القرآن يحذر وينذر من أن يغرق الانسان في شهوات الدنيا وزينتها ؛ جاء يحذر بالتزهيد وليس بالتبغيض فيها أو بالتشويه لما هى عليه من جمال ورونق وذلك لأن التشويه والتبغيض يفتحان الباب على مصراعيه للشكوك والظنون ويخلقان نفسية قلقة بين الواقع المشهود وبين الدعوة الى التبغيض والاستحقار ٠٠

ولهذا جاء التزهيد ضبطا للمشاعر والدوافع ، وحفظا لصحة الجسم والنفس ، وكذلك رجاء فيما وعد الله عباده الصالحين ، قال تعالى : « **وما هذه الحياة الدنيا الا لهو**

ولعب وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون »
(٦٤ **سورة العنكبوت**) ؛ أى أن الحياة الحقة هى الحياة
فى الدار الآخرة ..

وهنا يطالب القرآن الانسان أن يحكم عقله وعلمه
كى يدرك حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة ، ليعلم أى الحياتين
أبقى وأخلد وأجدر أن يعمل لها .. أما الذين يعيشون
للحياة الدنيا فان الله لا يبخسهم حقوقهم ولا يضن عليهم
بما يشتهون ، ومثل هؤلاء حين نحتكم الى منطق الحضارة
القويم يسعون بشهواتهم وذلك مما لا تزكو به نفس أو
تصلح به حياة كما أنه كفيل بأن يهدم ما يشيدون
ويؤسسون ؛ قال تعالى : « **من كان يريد الحياة الدنيا
وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون »
(١٥ سورة هود)** ..

والويل لهم من الله ؛ قال سبحانه : « **الذين اتخذوا
دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما
نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون »
(٥١ سورة الأعراف)** ..

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى أن
الدنيا جميلة حلوة وأن جمالها لا يتم بغير العمل وفق
شريعة التوحيد فقال عليه السلام : « **ان الدنيا حلوة خضرة
وان الله استعملكم عليها فناظر كيف تعملون »** ..

من أجل هذا حذر عليه السـلام المسلمين من أن يسلموا عقولهم ونفوسهم لحلاوة الدنيا وزخرفها •• لقد **حذر عليه السلام من جمالها بغير أن** يشوه هذا الجمال فقال : « أخوف ما أخاف عليكم مما يخرج لكم من زهـرة الدنيا **قالوا** : وما زهرة الدنيا ؟ **قال** : بركات الأرض »••

أو يمكننا **أن** نقـول : ان « بركات الأرض » هى سبب التناحر بين الأفراد والجماعات والأمم ؟

أو نقول اذن : ان هذا التناحر يشوه من جمـال الدنيا ويجعلها كالحة بغيضة ؟ نعم ، ولهذا قال عليه السلام : « **فوالله ما أخشى عليكم الفقر وانما أخشى عليكم أن تبسط عليـكم الدنيـا كمـا بسطت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كمـا أهلكتهم** » •• وللنجاة من مثل ذلك المصير فان على المسلم أن يجعل هواه أو دوافعه الفطرية وشهواته سائرة على شريعـة الحـق سبحانه فذلك **من تمام الايمان بالله** ؛ قال عليه السلام : **« لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لمـا جئت به »** ••

على هذا فان الزهد الذى جاء به القرآن مما لا يشوه **وجه الحياة الجميل النبيل ، فيه تضبط الأهواء** بغـير ارهاب أو اعنات يوهض النفس ويستذلها ، فهـو ضابط به تحكم الطاقات فى حركتها فلا تندفع اندفاعا أهـوج حطوما للنفس والمجتمع والعقيدة فى الأسـاس •• وهى

معيار به تقاس سرعة الطاقات وتقاس به درجة الأعمال ومدى أصالتها وصلاحيتها للنهوض بالمجتمع فكريا وثقافيا واقتصاديا ، وكذلك النهوض بمشاعره ونظرته للحياة ..

فاذا وجدنا من الزاهدين تعنيفا عنيفا للمتهالكين على ملذات الحياة فذلك حدب العطوف : فيه قسوة الأبوة وصرامة الصداقة المخلصة .. ويجب ألا يؤخذ هذا على أنه اعتزال للدنيا وهجرلها أو تشويه لجمالها واستهجان لزينتها فى الأنظار ؛ انما هو فى نضاره خوف على النفس فى ايمانها بالله من أن تضيع سحقا فى صراعات المادة أو تناحرات الاقتصاد ، أو تضيع الحضارة ذاتها تحت مطارق الحرب ودواخين الدمار ..

وفى القرآن هداية ...

وفى كلام رسول الله تأس ...

وفى قول الصالحين استلهام ...

ومما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **اذا أراد الله بعبد خيرا زهده فى الدنيا ورغبه فى الآخرة وبصره بعيوب نفسه** » ..

وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه يخشى الدنية ويتوقى فتنتها بالزهد عما فيها من ملذات تستهوى وتغوى ؛ فقال : « يا دنيا ، يا دنيا ، اليك عنى .. أبى

تعرضت أم الى تشبوقت ·· لاحان حينك هيهـــات ، غرى غيرى ، لا حاجة لى فيك فقد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها · فعيشك قصير وخطرك يسير وأملك حقير ، آه من قلة الزاد وطول الطريق وبعد السفر وعظم المورد » ··

اذن فالتزهيد فى الحياة ليس معناه بالضرورة بغض الحياة ؛ انه كما قلت ارتفاع عن ملذاتها وحبالات مغرياتها الى ما هو أسمى وأجمل تشويه للحياة واقتلاع جذورها وتعطيل العمل بها ·· ولكن قد تمر بالانسان لحظات من التشاؤم قد تطول حتى تشمل عمره كله ·· وقد تتسع وتتسع فتضم الناس أجمعين · وربما قيل : ان التشاؤم عارض نفسى قد يصاب به المرء وقد لا يصـــاب ومن ثم فلا يمكن أن يعد احساسا فطريا فى الانسان ·· والحق أن التشاؤم فطرة انسانية أساسية لها بواعثها وأهدافها الى جانب فطرة التفاؤل · ولو أردنا الدقة فى التشخيص والتعبير لقلنا ان الفطرة التى خلق عليهـــا الانسان هى فطرة الاستبشار والتفاؤل ·· وما التشاؤم الا حالة نفسية تعترى التفاؤل عندما لا يتحقق ما كان الانســان يأمل فيه من امكانيات فيخيل اليه آنذاك أن الوجـــود عبث ، والعمل فيه عبث والغاية منه وهم قاتل وسراب مضل ··

والقرآن يكشف للانسان عن ذاته ويعرفه حقيقة فطرته وأصل خليقته ؛ وفى ذلك تربية لكبريائه ومطامنة لغروره وجموح انفعالاته ؛ فيقول سبحانه : « لا يســأم

الانسان من دعاء الخير وان مسه الشر فيئوس قنوط » (**٤٩ سورة فصلت**) ·· ودعاء الخير أمـــل واستبشار وامكانيات يرجى تحقيقها ، وتلك هى فطرة الحيـــاة فى الانسان ·· ولكن من طبيعته أيضا أنه اذا مسه الشر بأن لم يتحقق ما كان يصبو اليه فانه ييأس ويقنط ، أى يتشاءم ·

وقد جاء البيان القرآنى مصورا لدرجة هذا التشاؤم فقال سبحانه : « **وان مســـه الشر فيئوس قنوط** » ·· وكلمة : « فيئوس لا تدل بصيغتها على شدة اليأس وحدته فحسب ، بل كذلك على عمق اليأس وتغلغله فى كل شعاب النفس حتى يصير وهو المحرك لكل فعل والمعبر عن كل قول ·· وكذلك القنوط ، انه ادراك اســتحالة تحقيق الامكانية ادراكا هو والشعور بالعدم سواء ·

وحين يجتمع اليأس مع القنوط فان ذلك يخلق مرارة ثائرة لا تميز بين الخير والشر أو بين النعمة والضر ·· وبهذه المرارة يهوى الانسان الى الدرك الأسفل من الثورة الشائهة وهى ما تعرف عادة باسم التشاؤم ·· وذلك فى حد ذاته لا يخدم قضية الوجود الحضارى التى ترتكز على على الارادة الانسانية التى لابد لها أن تقف من الحاضر وقفـــة حازمة ومن المســـتقبل وقفة مخاطرة لا تخشى ولا تتوجس ···

ان التشاؤم لا يخدم قضية الانسان فهو لا يعينه على يومه ولا يملأه أملا متفتحا لغده ، ولا يربطه بأمسه القريب أو أمسه البعيد ربطا حيويا فيه غذاء الأصول والجذور الأولى .

انه ـ أى التشاؤم ـ يفسد الوجود ويخلق من الانسان كائنا متمردا على معيشته وأمته .. ومما يلاحظ عادة على المتشائمين أن تمردهم قد يجمح ويجمح حتى يصير تمردا على خالق الوجود ذاته .. فان لم يكن تمردا عليه جل شأنه فهو على الأقل تجديف فى ظواهر الارادة الالهية .. وبذلك يخلق التشاؤم فكرا شائها واحساسا شائها ينظر الى الوجود فلا يرى غير موت ودمار وبهتان يسير كله الى لا غاية ..

ولكن الاسلام ـ وهو البصير بحقيقة الفطرة الانسانية ـ يربى الانسان على الايمان بالله وحده ، وذلك قمين بأن يقيه أوزار التشاؤم وموبقاته ، انه يربيه على أن الأمر كله لله ؛ قال تعالى : « **والى الله ترجع الأمور** » (**١٠٩ سورة آل عمران**) ..

ويربيه على تقدير العمل واتقانه نهوضنا بالمجتمع وارتقاء بالأمة واضعا نصب عينيه التزامه ومسئوليته أمام الله والرسول والمؤمنين ؛ قال تعالى : « **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** » (**١٠٥ سورة التوبة**)..

واذا كان يربيه على تقدير العمل فهو يربيه على حب الحياة ؛ قال تعالى : « **وان تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفورا رحيما** » (**١٢٩ سورة النساء**) ..

فان أصابته الحياة بشيء من رزاياها فلا يفلن ذلك من عزمه فعزم المؤمن قوى متين ؛ قال تعالى : « **واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور** » (**١٧ سورة لقمان**) ..

ونفس تربى على هذه الشريعة .. فكيف تكره الحياة وتبتئس بها ؟

ونفس تربى على هذه الشريعة .. فكيف لا تقبل على الحياة بنفس مطمئنة راضية ؟

ونفس تربى على هذه الشريعة هى بلا شك نفس تدرك حلاوة الايمان بالله وتدرك جمال الحياة باحساس لا يزيف على نفسه ولا يندفع مع أهوائه ، ولا يركن فى حمأة تقاليده .. ولكنه يسير كما أراده ربه تساميا وعلاء ، هو التعبد الخالص لله سبحانه .

وصفوة الاستمتاع بالحياة ـ بجمالها وزينتها وطيب رزقها ـ هو ما جاء به التوحيد فى اطار شريعته السمحة؛ فقال سبحانه : « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليه ولا تبغ**

الفســاد فى الأرض ان الله لا يحب المفســدين » (٧٧ سورة القصص) ٠٠

من هذا نقول أن الاحساس بالجمــال ليس مجــرد انفعال سلبى يدل على التنعم أو الترفه ، كما أنه أيضا ليس مجــرد انفعال ايجابى يؤدى الى فعل ايجابى حيث يعمل المرء على الحصول على ما يرضى شهواته من مناعم الحياة ومواطن الزينة والجمال ٠٠ وذلك نوع من الايجابية بغير شك ولكن ما نود أن نؤكده هو أن للاحساس بالجمال تعبيرا هو الابداع الفنى أو الخلق الفنى بأنواعه وألوانه ، وهو من أعمق الدلالات وأظهرها على طبيعة الحضــارة وروحها وغايتها بل على طبيعة الانسان وروحه وغايته ٠٠

واذا كان الفن تعبيرا عن الحضــارة ينطق بلواعج النفوس ويتغنى بأشواقها وآمالها وما ترجوه ٠٠ فهل لنا أن نقول أن الفن صدى للحياة وأن العقيدة هى الخالقــة للحياة ؟

نعم ، وانه اعتقاد لا يخالجنا ازاءه شك ؛ ولذلك ليست العبرة بمقدار ما خلقته العبقرية من آيات الفن والجمال ٠٠ وليست الأصالة المبدعة السباقة فيما خلقته العبقرية من آيات فى الشعر والموسيقى والغناء والتصوير والنحت وغيرها ، انما الأصالة فى الحيــاة التى تخلقهــا العقيدة فى نفوس الأحياء ٠٠

ان العقيدة هى كل شىء فى حياة الانسان وفى حياة الكون كله فاذا وجدت العقيدة التى تنظر نظرة صائبة صادقة الى الحياة والأحيـاء في عمومهم وشمولهم .. في أزلهم وأبدهم وواقعهم ، لا يضار فيها الفرد ولا تهاض فيهـا الجماعة أو تشقى بها البشرية .. فتلك اذن هى عقيدة الوجود أو عقيدة الجمال وان لم تكن قد أنتجت سوى جزء من ألف مما أنتجته حضارات سقيمة العقيدة ضـائعة الغاية ؛ فانها لبالغة ما ترجوه من الحياة على المدى الذى تتيحه لها عقيدة الشمول ..

وما كانت عقيدة الشمول سوى الاسلام الحنيف ..

وليس التعبير عن الحياة أصوات شجية فحسب ، ولا مجرد أصداء جوفاء تنبعث من فراغ الدعة والاستسلام .. وليس كذلك مجرد حلية يتحلى بها الناس استكمالا للوجاهة وحسن الزينة ..

ان التعبير عن الحياة حياة فى ذاته وهو لا يكتسب حياته الا من المقومات الواقعية لوجوده الانسانى . وهذا الذى يكتسبه ليس من ثم نافلة تضاف بل هو منه واليـه وأعنى بهذا أن التعبير يأتى من التفاعلات الحيوية للناس ويرتد اليهم تربية لاحساسـهم بالجمال وتزكية له .. بهذا يستطيع التعبير أن يعلم الانسان كيف يجعل من

حياته فنا جميلا ٠٠ والفن الجميل معـاناة تمثـل ورؤية مستبصرة ٠

ولما كان للمعاناة أسـبابها وظواهرها المتباينة ، وكذلك تختلف الرؤية باختلاف درجات وضـوحها وما تكشف عنه فى هيئته ومضمونه ٠٠ ازاء هذا التباين فى فن معاناة الحياة ـ أن أجيز هذا التعبير ـ تباين القـول فى فنون التعبير أو فنون الاحساس بالجمال ٠٠ فمن الناس من يرى أن الجمال ينبع من الفكر ، والفكر المطلق على التخصيص ؛ فالجمال بذلك هو جمال الفكر والاحساس به هو الاحساس بجمال الفكر المطلق ٠ وذلك هو لباب الأمر عند الفيلسوف الألمانى هيجل ٠٠ فعنده أن الصور الفنية هى المجال الذى تتجسد فيه الفكرة ، الفكرة التى لا تستسلم للأحلام الفردية والخيال الفردى فى اعتزال البيئة العامة التى تحيا بها ، لذلك فانه : « على الفنان أن يفكر تفكيرا جادا فى جوهر الحقائق فى كل ما لها من امتداد وعمق اذ بدون الفكر لا يكون المرء على وعى بما هو فى دخيلة نفسه ٠ وفى كل عمل فنى عظيم يرى المرء أن مادة الموضـوع قد فكر فيها وأعيـد التفكير فى جميـع نواحيها » ٠٠

ولما كانت الفكرة تبدو ـ فى تطورها الحضارى ـ فى صورة ظواهر حضارية من ثقافات وفنون وتقاليد فان خاتمة التطور هو انتصارها الكامل وبلوغها درجة الكمال

بعد أن تكون قد انتصرت على كل ظواهر التناقض ومنها ظواهر الجمال ٠٠ على هذا فالجمال ظاهرة عارضة فى فلسفة هيجل، وبناء عليه يكون الاحساس بالجمال احساسا عارضا ٠

ولقد تأثر الفيلسوف الايطالى بندتوكروتشيه بفلسفة الفكر عند هيجل فهو يرى أن الفكر يبدع آيات الجمال عن طريق الحدس Intulion ، مستقلا فى ذلك الابداع عما يتحوطه من ظواهر خارجية يستعين بها فى عملية الابداع دون أن يكون لها شأن يذكر فى الابداع ذاته ٠ فالابداع قائم على الفكر الذى يصيب قيمته بالاتساق والوحدة ٠٠

ويرى سانتيانا أن جمال العالم المحسوس هو اللذة التى تأتينا أثناء عملية الادراك والفهم التى هى فى حقيقتها تمييز وتصنيف لمحتويات الوعى ٠٠ وان قيمة ما ندركه من موضوعات تأتى مما تخلقه هذه الموضوعات من روابط ووشائج تربط الانسان بأشياء لا يدركها الحس آنذاك ٠٠ ويقرر سانتيانا فى هذه النقطة أن الصفة : « التى تكتسبها الموضوعات على هذا النحو عن طريق الارتباط هى ما نسميه تعبير الموضوع بينما نجد فى حالة الشكل أو المادة موضوعا واحدا له تأثيره العاطفى بطبيعة الموضوع الثانى أو الموضوع الموحى به ٠٠ وهكذا فقد يضفى التعبير جمالا على موضوعات لا تثير الأهمية فى ذاتها

وقد يزيد من جمال الموضوعات التى يتحقق فيها الجمال فعلا . ولا يسهل التمييز دائما فى الوعى بين التعبير وقيمة المادة أو الشكل وذلك لأن ذكرى الفكرة التى يتضمنها التعبير لا تكون دائما مميزة فى أذهاننا . أما حينما تكون هذه الذكرى مميزة كما هو الحال فى منظر حديقة ترددنا عليها فى الماضى فاننا فى هذا نعزو بوضوح وبتلقائية ما نحس به من الانفعالات الى هذه الذكرى وليس الى الواقع الماثل الذى تضفى عليه الذكرى جمالا » ..

ويفرق سانتيانا بين أنواع التعبير وفق تأثيراتها الجمالية التى يحصرها فى شكلين ، **أولهما** : الشكل المفيد الذى يصير مثلا أعلى أو نموذجا عاما يقاس عليه وتصبح ملامح هذا الشكل بكثرة التعود عليها والاحساس بالحاجة اليها مصدرا للذة فى ذاتها .. **وثانيهما** : الجمال الزخرفى ومصدره الحواس المستثارة والخيال المبتعث عن طريق الألوان وتشابك التفاصيل فى تناسق دقيق .. ولما كانت النزعة الأصيلة للعقل هى دائما الميل الى التوحيد فان هذين النوعين أو المصدرين للجمال لا يلبث أن يتغلب أحدهما على الآخر بطريقة : « تؤكد الجوهر الجمالى للشكل بل تزيد من مثالية هذا الشكل » ..

وهذا فى أنواع الفنون بعامة ..

أما فى اللغة فان المضمون أو المعنى هو لباب الجمال وجوهره .. غير أن المعنى لا يصيب قيمة جمالية تذكر

ولا تكون له آثاره في النفوس بغير أن يعرض في شكل ما بواسطة الألفاظ .. ولما كان التطور الفكري للانسان لا يثبت له كيان بغير اللغة ، كانت اللغة هي التعبير الصادق للتجارب الانسانية .. والحق أن اللغة كما يقول سانتيانا ضرب من الموسيقى : « وما توجده من آثار جميلة انما يرجع الى تركيبها والى كونها تخلع شكلا غير متوقع على التجربة حينما تتبلور في صورة جديدة .. فطبيعة اللغة التي يتكلمها المرء ومدى براعته فيها لهما أهمية كبرى في تحديد القيمة الجمالية لنتاجه فمهما كانت قوة ملاحظاته وعمق تفكيره واحساسه فلا مندوحة عن أن يشين هذه الأشياء جميعا الأسلوب الرديء وأن يزيد من تأثيرها الأسلوب الجيد » ..

ولكن ، هل وسائل التعبير أو الفنون بعامة تعبير عن هروب من عالم الواقع وما فيه من صراعات ، أم أن الفنون تعبير عن انطلاق وتحرر ؟

وفي هذا الأمر يختلف القول بين المفكرين .. فجون ديوي يرى أن ما بالعالم من صراعات وتناقضات كاف لأن يعطي نظرية : «الهروب» وزنا خاصا .. وذلك ما ارتآه سبنسر حين قال عن الشعر : « انه ليبدو في العالم بمثابة ذلك الفندق اللطيف الذي نلوذ به هربا من الألم وضوضاء الحياة بما فيها من ضجر وملال » ..

ولكن ما يهم جون ديوى هو مدى ما يستطيعه الفن من تحرير للطاقات الانسانية وما اذا كان هذا التحرير : « يتم عن طريق التسكين أو تخفيف الألم أو عن طريق الابدال أو التحول الى عالم من الأشـياء يختلف اختلافا جذريا أو ما اذا كان يتحقق عن طريق الكشف عما يستحيل اليه الوجود الواقعى بالفعل حينما يتم التعبير عنامكانياته تعبيرا تاما » .. وذلك ما أكده الشاعر الألمانى «جيته» حين قال : « ان الفن لهو شكل قبل أن يكون جميلا ، وذلك لأن الانسان يضم فى جنباته طبيعة مشكلة تتبدى من خلال فعله بمجرد ما يتحقق لوجوده أسباب الأمن والطمأنينة . وحينما تمارس هذه الفاعلية المشكلة نشاطها فيما يوجد حولها بوحى من ذلك الوجدان الواحدى الفردى المستقل الذى لا يحفل ولا يأبه لكل ما هـو غريب عنه فهناك لابد لها سواء كانت وليدة توحش فظ أم حساسية مصقولة أن تصبح كلا حيا موحدا » ..

والحق أن الفن نضـال بين حـرية الارادة وبين الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والفكرية التى تكون فى مجموعها عناصر المقاومة .. ومن خلال هذا النضال الذى يتم فيه التكيف الايجابى بين الذات والأحوال الخارجية تعبر الذات عن نفسها بالوسيلة الفنية التى تتلاءم معها .. ومن خلال هذا التعبير أيضـا تتأصـل الذات فى شخصيتها الفردية .

اذن فبالفن يكشف الانسان عن أسرار الجمال فى الطبيعة وفى ذاته ، وكان من نتيجة ذلك أن اعتبر الفن : « نوعا من المعرفة الراقية فأصبح ينظر اليه لا على انه يفوق معرفة الحياة العادية فحسب بل ومعرفة العلم نفسه أيضا » .. **ولقد قال كارليل** : « ان الفن يظهرنا على امتزاج اللامتناهى بالمتناهى وكأنما هو قد أصبح مرئيا أو كأنما هو قد استحال الى شيء يمكن نيله وادراكه هناك . وكل الأعمال الفنية الصادقة انما هى من هذا القبيل فنحن نلحظ فيها (بشرط أن نعرف كيف نفرق بين العمل الفنى الصادق وبين الانتاج المهوش المصطنع) أن الأبدية تطل عبر الزمان وكأن الحقيقة الآلهية ذاتها قد أصبحت مرئية » ..

وقد حظى الفن بحصة كبيرة من تقدير علماء الاجتماع .. وكأى ظاهرة انسانية فقد نشبت المعارك حول فردية الفن واجتماعيته ، فعند كوزان وبوجليه : « أن طبيعة الجمال فردية تعتمد على المقدرة الشخصية الخارقة فى الابتكار .. والمهم أن هذه القوة غير منطقية وانما هى قوة شعورية شديدة الحساسية وهى نوع من الادراك المباشر للحقائق يراها الانسان دفعة واحدة دون جدل أو نقاش » ..

ومن علماء الاجتماع من يقول بالنقيض فالاحساس بالجمال عند الانسان بذرة من بذور الاجتماع تنمو

وتزدهر ثم تؤتى ثمارها التعبيرية التى تشهد فيها لون المجتمع وطبيعته ، فالفن : « فى واقع الأمر ـ كما يرى « لالو » « ودوركيم » ـ ظاهرة اجتماعية لاتتعلق بما يجب أن يكون فى عقلية الفنان من النزعات والدوافع والمثل والغايات وانما يكون فى المجتمع بمعنى أن الفن ظاهرة موجودة فى خارج عقليات الأفراد وقائمة قبل مولدهم وتدوم بعد وفاتهم . وهذا معناه أن العبقرية فى الفن ليست فردية وانما اجتماعية . بحيث أن الفرد يكون وسيلة للتعبير عن مثل عليا ترسمها له الجماعة ويكون لتجديدها صدى اوجات عامة فى المجتمع . وبغير هذا لايكون لانتاجه المبتكر قيمة اجتماعية ولا يلقى نجاحا فى المجتمع » ..

وقد عبر عالم الاجتماع « تاين » عن هذا الاتجاه بقوله : « كل انتاج فنى هو فكرة تعبر عن الطبيعة والحياة وسواء عرفها أو جهلها الفنان فهى تقوده وهو يعمل لاخراجها محسوسة ملموسة » ..

حلال ٠٠ وحرام

نخرج مما سبق بحقائق لها أهميتها وخطورتها ٠٠ أهميتها في أنها تحدد طبيعة تصور النظرة الايمانية للفنون، وخطورتها فى أنها تعطى ماهية المعيار الذى يجب توافره واحكام خصائصه عند قياس درجات الحلال والحرام أو التمييز بين الحلال والحرام حتى لا يضل المرء ويشقى ٠٠

وأول هذه الحقائق : أن الاحساس بالجمال فطرة انسانية وأن التعبير عنه ضرورة انسانية ، بمعنى أن الانسان يحس احساسا داخليا ملحا أن حياته لا تكتمل ووجوده يفقد الكثير من روعة معناه بغير التعبير عن احساسه بالجمال تعبيرا فنيا ٠٠

ثانيا : أن التعبير عن الاحساس بالجمال ليس نافلة يمكن الاستغناء عنها أو يجب الاستغناء عنها فى بعض أطوار الحياة بل هو كما ذكرنا فطرة وضرورة ٠٠ ولما كان كذلك كان لابد له من أن يكون قادرا على احياء الفطرة بغير ابتذال أو قهر ٠٠ وأن يكون قادرا على تصوير سمات الحياة تصويرا فنيا صادقا يغنى الانسان ويرتفع

بحضارته وأن يكون فى نفس الآن واعية للفكر والارادة للحفاظ على الحياة الانسانية وصيانتها أو انتشالها من الوهدة التى تطفىء نور الجمال أن كانت قد تردت فيما يفسدها ويضلها عن السواء .

ثالثا : أن الاحساس بالجمال والتعبير عنه لايعرفان القيود الطبقية أو العنصرية الجنسية وكذلك لا يعرفان العنصرية الفكرية — ان أجيز هذا التعبير — فليس من الاحساس بالجمال فى شىء وليس من التعبير عن الجمال فى شىء أن يكون طبقيا يتغنى بالرأسمالية أو الشيوعية أو يتغنى بالعنصرية الجنسية أو الفكرية ، فهى كلها قيود وسدود تؤدى الى العزلة الحقودة النافرة من كل ما يعاطف الانسان على الانسان ..

رابعا : ان هذا معناه أن بقاء الاحساس بالجمال ونماءه يكمن فى الوحدة والانسجام وأن التعبير عنه لا يكون انسانيا بغير الوحدة العضوية التى تجمع بين العناصر المتنافرة فى تناسق أخاذ يدرك الانسان جماله ، وما هو أكثر من ذلك ، انه يشعر بأنه يشارك ايجابيا فى صنع آية الجمال ..

خامسا : ان ما يقال من أن للدين أثره فى الفنون أو التعبير عن الاحساس بالجمال قول ينبغى أن يؤخذ

بحرص وحذر كي تتضح الحقائق بفواصلها بعيدا عن التعميمات التى نموه وتخدع •• فلكل دين وجهته التى يقود اليها أتباعه وأنصاره ؛ ولكل دين أثره فى الاحساس والتعبير عن هذا الاحساس بآثار الفنون وأن نجعل منه المقياس الوحيد • ذلك لأن مقياس العظمة هو مقياس الحياة ، فلننظر فى الدين قبل أن ننظر فى آثاره لنرى كيف يتناول الحياة الانسانية ويشملها ، وكيف تربى عقيدته الانسان عقلا واحساسا وضميرا •• ولنرى كيف تريه الناس ، كل الناس •• وكيف تريه الكون بما فيه •• ولننظر أيضا فيما تبيحه العقيدة وفيما تحرمه ، وفيما توجبه وتفرضه ، وفيما تتسامح فيه ولا تستنكره ••

ثم لنستجمع ذلك كله ونوحد بينه بمنطق الحياة ، ونسير معه سيرا طبيعيا لا التواء فيه ولا تمويه لنستبين ان كان يفى بحاجة البشرية فى يومها وغدها ، وان كان لا يفصم بينها وبين أن تكون العبودية لله وحده بفاصم مدعى ، فان وفى وكانت قاعدته هى الوحدانية فذلك هو دين الحياة •• وانه لدين الاسلام الذى جاء بعقيدة التوحيد وشريعة الحق •• وبين العقيدة والشريعة ينشأ الاحساس بالجمال ويصدر التعبير عنه فى فنون جميلة ••

واذا أردنا أن نعرف موقف الاسلام من الفنون بعامة وأيها يحلها وأيها يحرمها فاننا نقول :

ان الاسلام لا يمنع ولا يحرم كل ما يزيد الحياة حسنا وصلاحا وفلاحا .. ثم هو يوجب كل ما يرتفع بالمشاعر الانسانية فوق بلابل الأشجان والشهوات ..

ومما لا يمنعه الاسلام ولا يحرمه فنى النحت والتصوير ، ففى هذين الفنين تتجسد أحاسيس الجمال عند الانسان ، فهو يبرز خفقات قلبه وأشواقه وما يصبو الى تحقيقه وتخليده .. فبالازميل والفرشاة ـ أى فى النحت والتصوير ـ يعزف الانسان آيات معبرة عن احساسه بوجوده وعن مشاعره تجاه ما حوله وما هو قائم فيه .. وهو فى ذلك كالشاعر الذى يتخذ الألفاظ مادة لتصوير احساسه بالجمال وتجربته فى الحياة بغير أن ينكر عليه أحد تصويره البيانى الذى يحاول فيه أن يعطى تجسيدات حية لواقع يعانيه أو لواقع يأمله ..

أما مسألة استنكار أو تحريم النحت والتصوير فان الاسلام حين قضى على الوثنية فى شبه الجزيرة العربية وسار بعد ذلك مجاهدا فى رفع وصمة الشرك التى رانت على عقل الانسان كانت ضرورة مصيرية ألا يسمح باقامة التماثيل وتصوير المناظر ، وأن يتشدد فى التحريم لأنه لا يعقل أن تمر آلاف السنين والناس يتقلبون

أمام الأصنام والأوثان ، وتهاويل الزخارف والصور يعبدونها من دون الله ، ثم يأتى الاسلام ويأذن للمسلمين بها وهم مازالوا في غضارة الايمان بالله الواحد الأحد ، باتخاذ التماثيل والتصاوير للتزيين والتجميل .. انه لو فعل ذلك لفتح الباب للشرك القديم واستجاش الخواطر لنزعات الوثنية وما كان لها من عوائد وتقاليد ، والانسان أسير عاداته وتقاليده الى حد بعيد فهو يحن اليها اذا ما ابتعد عنها ويشتد حنينه اذا ما أبعد عنها .. من أجل ذلك كان تحريم الاسلام للنحت والتصوير ..

ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **أشد** الناس عذابا يوم القيامة المصورون » ..

ومما له دلالة عميقة ما رواه مسلم عن عائشة رضى الله عنها ، **فقد قالت :**

« كان لنا ستر فيه تمثال طائر وكان الداخل اذا دخل استقبله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **حولى هذا فاني كلما دخلت فرأيته ذكرت الدنيا** » .. فالرسول عليه السلام يرتفع بايمانه المكين عن أن تستوقفه الدنيا وما بها من شهوات ، من أجل هذا كان يبعد وجهه الشريف عن رؤية ذلك الطائر المصور .

فعندما يكون الايمان وثيقا وآكد في رسوخه وصلابته من الجبال الشامخة فان الأمر يكون تساميا

وترفعا حتى لا يشغل القلب بغير عبادة الله وحده ٠٠ ولكن ايمان صاحب الدعوة عليه السلام غير ايمان من دعاهم اليها لهذا وجب التحريم والتشدد فيه ٠٠

أما وقد أصبح التعبد لصنم مما يمجه ايمان المسلم فضلا عن ذوقه فان له أن يصور وينحت بما يثرى حياته ويعمق من فكـره ويجعل تأمله تأملا كليـا يرقى فوق الصخب المادى ومغرياته ٠٠

ولكن كيف يكون كل من النحت والتصوير مثريا للحياة ؟

وكيف يكون أداة معبرة صادقة فى تعبيرها وصادقة فى غايتها من وراء التعبير ؟

هناك اتجاهات متعددة ومذاهب فنية متخالفة فى الابداع الفنى ، لكل منها طريقته فى التصميم أو التصوير ٠٠ وأيا ما كان تخالف الاتجاهات أو تعدد المذاهب فان التخالف والتعدد دليل خصـوبة وجودية عامرة بالحيوية بغير شك ٠٠ ولكن أن تكون الغاية اعناتا للعقل والتصور أو حتى للعينين بمذاهب يقال لها «تجريدية» ٠٠

ولكن أن تكون الغاية من النحت والتصوير اشاعة اتجاه سياسى أو شائعة سياسية تثير الفتنة بين طوائف

قادتها والقائمين على أمرها تآمرا لحقد دفين أو ائتمارا من عدو متربص ..

ولكن أن يكون ذلك هو التيار الذى تسير فيه أو تسير معه بعض نزعات النحت والتصوير فانها تكون بغير شك أدخل فى دائرة الحرام وان احتج المحتجون وتأول المتأولون بدعاوى الحرية والانطلاق والتجديد ..

فالحرية لا تعنى الاسفاف والانطلاق لا يعنى الجموح المخرب ، والتجديد لا يعنى البدع التى تعطب الفكر والشعور وتصدف عن حياة الحب والتعاطف والايثار لما فيه خير الأمة والفرد على السواء ..

والفن الذى كثر حوله الكلام ـ ولا يزال ـ وتناقض هو الغناء ؛ فالقاضى أبو الطيب الطبرى يرى أن الشافعى ومالك وأبا حنيفة وسفيان وغيرهم من العلماء قد قالوا بتحريم الغناء .. أما اباحته فقد قال به أبو طالب المكى مستندا الى ما قيل من أن عبد الله بن جعفر وعبد الله ابن الزبير ، والمغيرة بن شعبة ومعاوية وغيرهم قد سمعوا الغناء ..

وقبل أن نستطرد فى الكلام عن الغناء فاننا نقدم حادثة لها مغزاها الكبير .. فلقد أنكر بعض المسلمين على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، الغناء ، أنكروا صدوره من امام يؤمهم للصلاة ويقرئهم كتاب الله .

فقالوا له : ان لنا اماما يصلي بنا العصر ثم يغني بأبيات فقام معهم الى منزله واستنشده تلك الأبيات فقال :

وفــؤادي كلمـــا نبهتـــه
عـــاد في اللذات يبغي تعبي
لا أراه الدهــر الا لاهيـــا
في تمـــاديه فقــد بــرح بي
ياقرين السوء ما هــذا الصبا
فنى الدهر كــذا في اللعب
وشـــباب بــان عني ومضى
قبـــل أن أدرك منـــه أربي
نفسي لا كنت ولا كان الهوى
اتقــي الله وخـــافي وارهبـــي

فجعل عمر يقول : نفسي لا كنت ولا كان الهـــوى ... وصار يبكي ، ثم قال : من كان مغنيا فليغن هكذا ..

وما نريد أن نقرره اســتنادا الى الدين الســـمح القويم أن سماع الصوت الحسن والتغني به مما لا ينبغي تحريمه باسم الدين خوفا عليه ومما لا ينبغي استهجانه باسم الرجولة والوقار وكأن الرجولة قرينة الغلظة في الطباع .. وكأن الوقار قرين البلادة وانحراف الذوق .

لا ينبغي تحريم الغناء والســـماع ذلك لأن النص القرآني يحله ممتدحا مكرما .. وقد وردت اباحة سماع

الصوت الحسن فى معرض امتنان الحق سبحانه على عباده اذ قال : « **يزيد في الخلق ما يشاء** » (**١ سورة فاطر**) .. وقد ذكر المفسرون أن الزيادة هى الصوت الحسن . وقال سبحانه : « **ان أنكر الأصوات لصوت الحمير** » (**١٩ سورة لقمان**) ؛ والدلالة هنا هى امتداح الصوت الحسن ..

وفي الحديث ، قال صلى الله عليه وسلم : «ما بعث الله نبيا الا حسن الصوت » .. وقال عليه السلام : «لله **أشد اذنا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة لقينته** » ..

وليس النص وحده يمتدح الصوت الحسن ويدعو اليه بل اننا نستطيع أن ندرك ذلك من الفطرة البشرية ذاتها ؛ فللطبيعة البشرية خصائصها التى تعيش بها وتعينها على الاستمرار والترقى .. ولكنها لا تستطيع أن تؤدى وظائفها جيدا بغير ما يلائم كل خصيصة منها . فلكل جارحة من جوارح الجسد وظيفة خاصة ومهمة معينة .. ولكى تنهض بعملها كان من الضرورى أن تتغذى بغذائها تجديدا لقوتها وبعثا لنشاطها على ألا يكون الغذاء فوق حاجتها أو أقل منها أو غير ما يستقيم وطبيعتها . ومن هذه الجوارح الفم والأذن .. فللفم غذاؤه فى ترنمه بالألحان العذبة وكذلك للأذن التى يلذ لها أن تسمع الأصوات الجميلة . وان فى الحجر على الفم ألا يترنم

بالألحان العذبة والحجر على حاسة السمع ألا تطرب للأصوات الحسنة بدعوى أن ذلك حرام هو حكم عليها بالتحجر والجمود مما يفقدها القدرة على التمييز بين الأصوات وتذوق الجميل منها ..

ألا يطرب الانسان لصوت حبيبه أو صديقه ويأنس به ويعده نغما عذبا تستريح له نفسه ويهش له قلبه ولو لم يكن كلاما منظوما ؟!

ان الاحساس بجمال الصوت الحسن فطرة في الانسان والاسلام وقد جاء لرفع الاصر عنه فانه يعطي لمقومات الفطرة ونزعاتها حقوقها كاملة كي تنهض برسالة التوحيد في صدق واخلاص .. ورسالة التوحيد عبودية مسبحة قانتة وعمل يعمر الحياة ويصعد بها في رخاء بهيج بغير اسفاف يوضع وراء الفتنة ويفتتن بما يهدد البناء الاجتماعي بالتقوض ..

ان الاسلام حين دعا الانسان الى أن يأخذ نصيبه من متع الحياة فقد دعاه الى أن يكون محسنا في صنعه وعمله . والاحسان لا يصدر الا عن احساس أصيل بالجمال ؛ قال تعالى : « **ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك** » (**٧٧ سورة القصص**).. فاذا استمع المرء الى قول فليستمع الى أحسنه ، قال تعالى : « **الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه** » (**١٨ سورة الزمر**) .. واذا قدم قولا فليقدم الحسن الجميل ؛

قال تعالى : « وقولوا للناس حسنا » (٨٣ سورة البقرة) ..

وبقدر تعدد أعمال الناس وتنوع أشواقهم ومشاعرهم وأحلامهم تتعدد تبعا لذلك مناحى الكلم الموزون والترنم به فى أنغام ولحون :

فمنها أغانى الحجيج وأغانى الحض على القتال والثبات فى الميدان .. ومنها الأغانى التى تثبت قلوب المواطنين وتدعوهم الى الوقوف صفا واحدا وراء قادتهم وروادهم صمودا فى سبيل الحق وصونا لوحدة الأمة .. ومنها الأغانى التى تحث على العمل وتحبب التغانى فيه والسهر عليه .. ومنها أغانى الرثاء وتهييج الأحزان والبكاء .. ومنها أغانى الأفراح والأعياد أو « المناسبات » .. ثم هناك أغانى العشق والهوى وألحان الحب والغرام . وازاءها ينقسم الناس ويتفرقون : فمنهم من يقول بتحريمها ، ومنهم من يحلها ، ومنهم من يجيزها بأحوال وأوقات ..

والقول الفصل فى أغانى الحب والغرام وما يدور حولها من موسيقى سواء فى انشائها واذاعتها أو فى سماعها ، أنها مما لا يمكن منعه أو التقليل من شأنه وخطره الا اذا استطاع الجامدون أن يمنعوا التقارب بين الذكر والأنثى لبناء أسرة ووضع لبنة جديدة فى صرح المجتمع ..

والتقارب أنس وشوق وتعاطف .. وفي الأسرة يكون حديث الحب بين الزوجين وفاء وتفانيا وحنينا يكشف عن طبيعة الوشـائج ومداها بين القلوب .. وحتى في خلافات المغاضبة والهجران ، من ذا الذى يستطيع أن يمنع لواعج الشـوق من أن تزيد من أوار الحنين وحـرارة الحب ؟

ومن ذا الذى يستطيع أن يمحو من الذاكرة أيـام الوصال فلا يعاودها الحنين رجاء وأملا ؟

بأى مقياس نقيس أشـواق النفوس ؟ وبأى ذريعة نكبح أو نقمع فطرة الأشواق ؟

واذا كبحنا أو قمعنا فكيف يكون رد الفعل النفسى والسلوكى عند الفرد والجماعة ؟

ان سماع الحان الوصـال وحـلاوة أيامه لتقريب للنفوس النافرة وانتزاع لأسـباب الجفـوة والهجران من النفوس الظامئة الى الأنس والاطمئنان ..

وقد ذكر الامام الغزالى فى أسباب اباحة سـماع أغانى وألحان من برح بهم الشوق ، أنه لا جناح فى « سماع أغانى العشاق تحريكا للشوق وتهييجا للعشق وتسـلية للنفس فان كان فى مشـاهدة المعشـوق فالغرض تأكيد اللذة وان كان مع المفارقة فالغرض تهييج الشـوق ، والشوق وان كان ألما ففيه نوع لذة اذا ما انضـاف اليه رجاء الوصال . فان الرجاء لذيذ واليأس مؤلم وقوة لذة

الرجاء بحسب قوة الحب للشيء المرجو .. وهذه أنواع تمتع من جملة مباحات الدنيا ومتاعها » .. ثم يقول : **« اما الحرام فهو تحريك الشـوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء »** .

وتكمن في هذه العبارة الأخيرة نظرة الامام الغزالي الى ما يجب أ نيكون عليه كلام الأغنية وطريقة أدائها .. فينبغي ألا يكون الكلام محركا لأشواق الجسـد ومهيجا لنزعاته وداعيا اليها في عبارات تكشـف عن العورات وتضري بالتلصص اليها فيكون دعوة سـافرة سافلة الى الفحشاء والمنكر .. فاذا أضيف الى اللحن طريقة الأداء ذاتها في تخنثها في التطريب مما يجرح مشاعر الحياء ، فان تحريم ذلك اللون من الألحان في اذاعته وسـماعه يصبح فريضة واجبة .

وفوق هذا فان الحفاظ على سلامة نسيج المجتمع في علاقاته ومصالحه المتشابكة واسـتواء نفسية أفراده واستقامتها ، ذلك كله يستوجب « تحريم » كل كلمـة تغري بالانحـلال ، وكل لحن يقتنص العزمات فيوهنها ويوهن خلال الحياء بها .. ويصدق هذا كما ذكرنا على فنون الجمال بعامة : فالتمثال المنحوت قد يرتفع بالمشاعر زكاء وعلاء وقد ينحدر بها الى سفح التبذل والترخص .. ومثل ذلك في الصـورة واللحن والحـوار التمثيلي . وبالنسبة للحوار التمثيلي ـ مسرحية أو رواية سينمائيةـ فان لنا معه كلمة ..

فالروايات التمثيلية سواء أكانت مأساة أو ملهاة، ينبغي أن توضع في الاطار الذي يحيي الانسان أملا وعملا ·· فتبتعث فيه نوازع الخير والايثار والعمل الكريم · قد تكون المأساة قاسية على المشاعر مؤججة لنيران الأسى والاشفاق الحاد لما تثيره من تصاريف الأقدار ·· وعرض ذلك حلال مباح ومطلب واجب التجسيد ولكن خطورة التراجيديا وما يدخلها في دائرة التحريم يأتي من أمور ثلاثة :

أولا : أن تصور الانسان في صورة الفريسة المهيضة لتصاريف الأقدار العمياء التي لا تفرق بين موقف وآخر ، أو عمل وعمل ، مؤكدة بالايحاء الملح على ضياع الانسان وعدمه وعبث خاتمته ·

ثانيا : أن تثير التراجيديا مواقف « جنسية » وتتخذها المحور الوحيد الذي يدور عليه مصير الانسان وكيانه وظواهر حياته وكأن شهوات الجسد حين تنحرف وتسف في انحرافها هي شغلان البشرية جمعاء ··

ثالثا : أن تثير التراجيديا بتأثيرها الفلسفي أو شبه الفلسفي تساؤلات واستفهامات متناقضة تكون مدعاة للشكوك في الوجود ومآله ان لم تكن مدعاة للتجديف في حق الألوهية ذاتها ··

وهذه الأمور الثلاثة كامنة في مجموعها الى أن تمزق

الكيان الفكرى والنفسى والعاطفي للانسان والى أن تزعزع بنيانه الايماني أو ضميره .. واذا تمزق البنيان الايمانى، واذا تمزق الكيان الفكرى والنفسى والعاطفي وأصبح مزقا منحرفة عن مجال الاستواء القويم ، أفلا يكون ذلك سببا لأن يصاب المجتمع بأضر الآفات وأقدرها على افساده وتقويضه ؟ وأى مجتمع هو ذاك الذى تشيع فيه فوضى الأعمال التراجيدية بين الادعاء بالتحرر والادعاء بالتفلسف .. والادعاء بالتعاطف والاشفاق على مصير الانسان .. والادعاء باستخراج أخفى خفايا الضمير الانسانى وما يمور فيه من نزعات ونزوات مكبوحة ؟!

ولا حرج على الأعمال التراجيدية التى تدعو الى التحرر والانطلاق .. ولا حرج على الأعمال التى تجسد أبعاد التعاطف والتنافر التى تنشأ بين أبناء آدم ..

ولا حرج على تجسيد خفايا الضمير الانسانى وما يصطرع فى اللا شعور من خواطر وهواجس ..

لا حرج على ذلك كله الا أن يكون الهدف كما قلت مجرد اثارة قائمة على امعية فلسفية أو تبعية سياسية متآمرة أو اثارة صادرة عن سطحية فكرية تتسم بالعقم وقصر النظر ..

واذا علمنا أن الطبيعة الانسانية تنطوى على فطرة اليأس والقنوط كما تنطوى على فطرة حب الخير والسعى

اليه والاعتزاز به الى حد التكبر والتجبر كما قال سبحانه: **« واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر فيئوس قنوط »** (**٤٩ سورة فصلت**) .. اذا علمنا هذا فاننا نستطيع أن نتصور مدى الأخطار التى قد تؤدى اليها روايات المآسى أو التراجيديا التى قد تنحرف الى ما أشرنا اليه ..

ومع ذلك فان النفسية المسلمة لها من ايمانها بالله ما يعصمها من كوارث الحاضر وما قد ينذر به المستقبل .. فالوجدان المسلم لا يتشتت أمام المصائب أيا كان لونها ؛ ولا يفقد يقينه بالله اذا كرثته داهمة لأنه يؤمن أنهما مواقف ابتلاء وتمحيص لايمانه وارادته وفكره بل ابتلاء لحريته وكرامته .. نعم ، انه يعى وعى ايمان بصير معنى **قوله تعالى : « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون »** (١٥٥، **١٥٦ سورة البقرة**) ..

فضلا عن ذلك فالقرآن الكريم فى قصصه حافل بأروع مواقف التراجيديا من ناحية الرمز الوجودى والدلالة الفلسفية .. ومن هذه المواقف موقف نوح عليه السلام وابنه لحظة الطوفان ..

فكأن القرآن الكريم يربى الوعى الاسلامى على

مواجهة مواقف الابتلاء والفتنة مواجهة بطولية فلا ينكص ولا يتشكك .. وكذلك يربى ذوق المسلم على تقـــديره مواقف الابتلاء تقديرا فنيا أصيلا عندما تعرض مشاهدها فى الاطار الفنى القديم .

والى جانب التراجيديا فهناك الكوميديا ..وبالنسبة اليها فاننا نقول : انه اذا كان التفاؤل بالخير والسعى اليه وكذلك اليأس عند وقوع البلاء فطرة فى الانســـان فان الضحك فطرة أيضا ، فله بواعثه ومقتضياته وأوقاته وحالاته . وهذا مما يجعل له نوع خطورة بالنسبة للتكوين النفسى للفرد أو التكوين النفسى للمجتمع . وغنى عن البيان ، ومما يدركه الناس على اختلاف مراتبهم وأعمالهم أن الضحك أو الفكاهة ، أو الكوميديا انما هى ترويح عن النفس وتخفيف مما عليها من اثقال الحياة واعطائهـــا لحظات من الانتعاش النفسى الذى يبعث الحيوية ويجـــدد النشاط ..

هى ترويح عن النفس أيا كانت صنوفها وأهدافهـــا .. فلتكن الكوميديا نقدا اجتماعيا ، ولتكن نقدا سياسيا ولتكن نقدا ذاتيا فانها فى غايتها الأولى اضحاك وترويح أو تسرية وتخفيف .. وبين الاضحاك والتسرية تبدو الآفات التى يمكن أن تتجسد وتتجســـد حتى تصبح مرضا اجتماعيا عصيا على العلاج أو المداراة ..

ولعل من أخطر الاخطار أن تصطنع الكوميديا للتهجم على الآداب وقواعد الأخلاق اما بالماحكة فى بدعة التحرر والانطلاق واما بالمماحكة بالثورة على الجمود والبلادة ..
وذلك لأن الكوميديا بما تحفل به من فكاهة وسخرية أكثر ذيوعا وأسهل جريا على ألسنة الناس الذين يميلون الى التفكه ويستطيبون بواعثه . ولذلك فان الحوار فى الكوميديا اذا ما تعمد من خلال المواقف المتناقضة التى تفجر السخرية المضحكة أو التى تختلق مناسبات الاضحاك والهجوم على الآداب وقواعد الأخلاق فان فى ذلك اضراء واغراء بالخروج عليها وذلك هو الحرام ..

وكذلك الكوميديا التى تخرج بفكاهتها ومواقفها الهزلية الى الكلام المكشوف المتفحش فى ذكر علاقات الرجال بالنساء فهى حرام حرام !! ولم لا تكون حراما ؟ أليس فيها اهدار للقيم واستمرار للانحلال واجتراء بالفحشاء على النيل والحياء ؟ بلى وحذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« ان الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها فى النار أبعد من الثريا » .

والكوميديا ــ أو الاضحاك ــ مواقف ساخرة لأوضاع يكون عليها الفرد أو الطبقة أو المجتمع .. فاذا جاء الاضحاك سخرية من انحراف أخلاقى أو سلوكى بغية الترفع عنه أو الاستنقاذ تطهيرا للنفوس والصدور أو تقويما للأفكار

.. اذا جاءت السخرية كذلك فهى الفكاهة المحبوبة المليحة بل هى الفكاهة الحقة الصادقة .. فان لم تكن الكوميديا للاصلاح والتقويم ، وكانت المواقف الساخرة أو الفكهة مما لا ضرر عنها ولا اساءة للمشاعر بل هى من طبائع الأشياء لا يلحظها سوى الذكاء اللماح فذلك حلال يجب أن ننشده ونحرص عليه .. وانها لحكمة بالغة أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « **انى وان داعبتكم لا أقول الا حقا** » ..

وانها لحكمة بالغة أيضا أن يحذر من المزاح فيقول عليه السلام : « **لا تمار أخاك ولا تمازحه** » ..

ونضار الأمر أن الحلال والحرام فى الكوميديا يحكمه قوله تبارك وتعالى « : **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون » (١١ سورة الحجرات)** ..

والفن الذى يمكن أن يقال انه فن متهم هو الرقص وهو عند أصحابه أنواع وألوان : فهناك الرقص الشرقى والرقص الغربى والرقص الشعبى ورقص الباليه .. وكل نوع من هذه الأنواع له عند أصحابه قواعد وأصول وتقاليد .. ولو سألت أهل كل لون عن مكانة رقصهم بين الفنون لقالوا فى اعتزاز : انه فن له مكانته وكرامته .. ولو سألتهم

عن علاقته بالأخلاق لقالوا على الفور : هذا يتوقف على تفكيرك أنت : « الفن » طاهر جميل ··

ولتحديد موقف الاسلام من فن الرقص فاننا نقول: ان علينا أن نرجع الى موقف الاسلام من الحياة والانسان والناس ، فان كان الرقص مما يعمق من الحياة ويصونها ويسعد الانسان ويزكيه ، ويبهج الناس ويعاطفهم فنعما هو ·· ولكن الرقص سواء أكان شرقيا أم غربيا هو رقص جنسي مثير لنزعات الجنس وانفعالات الجنس وأشواق الجنس وهو في سبيل ذلك يسقط ستار الحياء غير حافل بالخلق أو السلوك المحمود ·· فان قيل في هذا الرقص غير ذلك فهو من قبيل التمويه والمخادعة التى تفسد على الناس نفوسهم وضمائرهم وتفسد على المجتمع قوة بنائه ووحدته ··

أما الرقص الذى يمكن التسامح فيه الى حد ما فهو الرقص الشعبى يعرض فى مشاهده ـ أو لوحاته ـ تقاليد الأمه فى غابرها أو حاضرها · ·وكذلك رقص الباليه فيما يعبر عنه من رموز لها دلالتها المعنوية أو الأخلاقية فى حياة الانسان بعامة ·· وذلك حلال لا سيما اذا طور وأتقن بما لا ينحرف به الى الاسفاف فى الحركة أوالوضاعة فى الرمز ·· والدليل على ذلك ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم · ففى الخبر أن عائشة رضى الله عنها قالت : « سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم

يلعبون فى يوم عاشوراء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **أتحبين أن ترى لعبهم ؟ قلت** : نعم • فأرسل اليهم فجاءوا وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بين البابين فوضع كتفه على الباب ومد يده ووضعت ذقنى على يده وجعلوا يلعبون وأنظر وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حسبك ، وأقول : اسكت ، مرتين أو ثلاثا ، ثم قال : يا عائشة حسبك • فقلت نعم ، فأشار اليهم فانصرفوا • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا والطفهم بأهله** » ••

ان الفنون التى تزيف على الناس حياتهم وتسعى الى الجامهم بلجام الشهوات أو تسعى لبث الفرقة والشتات هى فى حقيقتها آفات نفسية صادرة عن نفوس منحرفة تتآمر من أجل هدف : قد يكون ذاتيا أو شخصيا وقد يكون اجتماعيا وربما يكون قوميا •• والانحراف يكون ابتعاد عن شريعة الحق سبحانه • ومثل ذلك النكول لا يخلق انسانا ولا يصلح مجتمعا •• اذا فاتباع الهوى ضلال وليس أضل ممن اتبع هواه ، قال تعالى : « **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله» (٥٠ سورة القصص)** ••

وحذر القرآن من الاغترار بما يزينه أصحاب الأهواء لأن قلوبهم غافلة عن ذكر الله ومن غفل عن ذكره فقد غفل احساسه وعقله عما يجب أن يعمله لاصلاح الحياة ،

قال تعالى : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » (٨٢ سورة الكهف) ..

لكنما الصدق الجميل هو الذى يحيى النفوس ويعاطفها ويجعل حياتها عملا وتحقيقا واصلاحا ..

ونحن اليوم فى عصر فنون التعبير فيه لم تعد مقياسا تقاس به درجة الارتقاء الحضارى فحسب وانما أصبحت كذلك سلاحا قادرا على بث بذور الفتنة أو بذور الشك والحيرة فى المجتمع وقادرا أيضا على العبث بأخلاقياته وتقاليده فيجتذبه بما يقدمه من فنون التعبير الى اقتراف مآثم الفحشاء متذرعا باسم المدنية والحرية .. وان لفنون التعبير خطرها وتأثيرها المباشر على الفكر والنفس فهى تستطيع أن توجه الرأى العام حيثما يشاء مبدعوها .. وأكثر من هذا فان فى مكنتها خلق ذوق عام واحساس عام بالجمال ..

الا أن الفنون اذا صدقت وصدق القائمون على أمرها والمبدعون لها وسارت وفاق ما استلهمناه من القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، كانت هى نعم الحلال الذى يسعد ويغنى ويبعث الحياة فى القلوب المقفرة ، فاذا الكون أنشودة حب ورجاء .. واذا الوجود ترنيمة شكر لبارىء الأرض والسماء .

الفصل الثانى

الرقابة على الفنون الاسلامية
مقاييسـها
وحـدودها
ولمن تكون

بين الرقابة والنقد

« يقول سبحانه : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة (١٤ سورة آل عمران) ..

ويقول سبحانه : « انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » (١٤ سورة الكهف) ..

فى هاتين الآيتين الكريمتين تتركز ثلاث حقائق رئيسية تحكم الوجود الانسانى فيما يعمل ويأمل أو تسعى به أقداره وصروف زمانه ..

فالآية الأولى تعرض الطبيعة البشرية أو الفطرة البشرية بأبعادها وأعماقها وظواهرها .. فالكيان البشرى قائم على الشهوات ، والشهوات رغبات ودوافع وغرائز أو هى الامكانيات الفطرية التى لا يكتب للانسان وجود بغيرها . وهذه الشهوات ليست مرجوة أو مأمولة فحسب لكنها محبوبة أيضا .. وحبها يعطى لها صفة الدوام ويعطى للانسان دائم السعى الدءوب اليها .

فهو لا يفتر فى رجائها ولا يصيبه الونـاء فى طلبها
.. انهـا أثيرة الى قلبه ، اثيرة الى نفسه بل هى نفسه
فى أشواقها وأحلامها . ومما يعطى حب الشهوات أعمق
الدوافع وأعظم الطاقات على النزوع والانطلاق أن الشهوات
مزينة فى فطرة الانسان . فهى فى تصوره وخياله جميلة
غاية الجمال ، لذيذة غاية اللذة ، ساحرة غاية السحر .
لها نوع من الجاذبية لا يقاوم ولا يملك المرء نحوه سوى
التسليم والاذعان فى رضـاء هو السعادة التى لا سعادة
فوقها .. تلك هى غرائز الانسان أو دوافعه أو نزعاته ..
سمها ما شئت الا أنها حب واشتهاء ، وما الحياة غير حب
واشتهاء ...

وتقرر الآية الثانية أن هذه الشهوات المحببة ..هذه
الشهوات المزينة ليست أحلاما أو خيالات تمور فى فراغ
أو تموج فى فضاء سحيق ولكنها طاقات أو امكانيات تنشد
واقعا وتسعى الى التحقق فى واقع ...

وما واقعها سوى الأرض ففيهـا تجد الشهوات
المزينة فى سواء النفس حاجاتها رابية زاكية ..

ولكى تكون الاستجابة فطرية حيوية ، ولكى يكون
التحقق ايجابيـا مشبعا لشهوات النفس فان منطق الفطرية
البشرية يقتضى أن تكون الأرض على درجة من الزينة تتسق
والزينة التى خلقت عليها هذه الفطرة .. وبذلك ينشأ

التآلف والتجاذب فتتحقق امكانيات الفطرة . وهذا ما قدرته العناية الالهية فقـــال سبحانه : « **انا جعلنا ما على الأرض زينة لها** » ..

ومن هنا لم تكن زينـــة الأرض مجرد تزويق وتجميل يسر الانظار أو مجرد حلية فارغة لا ترضى حســـا ولا تروى ظمأ .. ولكن الحق سبحانه جعل كل ما على الأرض « زينة لها » أى فيـــه امكانية اشـــباع الشهوات .. فهنـــا كما قلنـــا تجاذب حى بين الفطرة المحبـــة والأرض المحبوبة وهذا التجاذب الحى حركة وتغير واتجاه ، فهو بذلـــك مكابدة من أجل تحقيق الرغبـــة أو اشـــباع الشهوة فى سبيلها تكون المكابدة هموم وظنون واقدام واحجام ومغالبة، يغالب المرء فيها الحاح الشهوة ويقظة الضمير كما يغالب فيها تقاليد مجتمعة وطبيعة شخصيته وربما غالب طبيعة عصره وزمانه ..

وسواء المغالبة أو المكابدة فهما الابتلاء فى عمومه .. الابتلاء الذى به وفيه يتحقق الامكانيـــة فتصبح عملا واقعا ينعكس أثره على الفرد والمجتمع والأمة كذلك .. ولـــذلك فقد حددت الآية الكريمة الطبيعة التى يجب أن يظهر عليها العمل بأن يكون كفاء الزينة التى خلق الله الأرض عليها ـ وكفاء الزينة التى خلقت عليهـــا نفس الانسان فى رغباتها ودوافعها .. وما الكفاء سوى أن يكون العمل زينة من الزينة .. وسوى أن يضيف زينته الى زينة الأرض فلا

يشوهها ولا يفسدها ٠٠ نعم ؛ : « ولنبلوهم أيهم أحسن عملا » ٠٠

واذا كانت الشهوات قد زينت فى فطرة الانسان فزينت فى عينيه ومشاعره كما زينت ظواهر الأرض لاشباع تلك الشهوات وكان الاشباع لا يتم بغير مقاساة ومكابدة كان معنى هذا أن الانسان فى موقف الابتلاء الدائم أو موقف الاختبار الذى لا يفتر ٠

وما الاختبار ؟

وما الابتلاء ؟

انه نقد وتمحيص فيه يتم الاختيار ويقع التحقيق ٠٠ فالانسان اذن رقيب على نفسه ناقد لذاته ، بصير بما يفعل وعلى ما يعمل ؛ قال تعالى : « **بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره** » (**١٤ ، ١٥ سورة القيامة**) ٠٠ فشرط احسان العمل المراقبة والنقد فبغيرهما يستحيل على الانسان أن يتقدم خطوة على طريق الارتقاء أو على طريق انجاز ما بين يديه ٠٠ فهو يراقب خطاه كيف تتم ، وكيف يجب أن تتم ٠٠ ويراقب ما صنع وهل هناك طريقة أصوب أو أكثر أمنا كان يمكن أن تتبع ٠٠ ثم هو يراقب آثار ما أنجز أو آثار ما يمكن أن ينجز على نفسه وأهله ومجتمعه ، ما يمكن أن يجره من ويلات أو يجلبه من خيرات ٠٠

وحين نقول أن الانسان بصير على نفسه أو مراقب لنفسه ناقد لها فان هذا يلزمنا بأن نحدد مفهوم كل من المراقبة والنقد والعلاقة بينهما وحدود كل منهما ..

فالمراقبة نظر عن بعد فهي من ثم مشاهدة للخطوط العامة أو التحركات الأساسية :

من أين بدأت ؟ وكيف سارت ؟ وماذا حدث في سيرها ؟

وكيف تخطت عقباتها وتغلبت عليها ؟ والى أين تسير في حركتها ؟

هل تتجه الى ما هو أقوم ؟ أم أن اتجاهها يوردها موارد التهلكة والبوار ؟ وسواء نظر الانسان الى ظواهر الاجتماع عن بعد أو نظر الى ذاته عن بعد بأن وقف منها موقفا موضوعيا فراقب نتيجة أعمالها وطبيعة مسيرتها .. سواء مراقبة الغير أم مراقبة الذات فان المراقبة لا تكون الا بوجود بعد اجتماعى ـ ان أجيز هذا التعبير ـ أو بعد سيكلوجى أو وجود الاثنين معا عند التقييم والتقدير .

وأمر ثان ، هو أن المراقبة تعنى الالتزام بالتقييم والالزام بالتغيير أو التصحيح على أقل تقدير .. وعلى هذا فالمراقب حكم وحاكم فى نفس الآن .

أما النقد فالصفة الغالبة عليه أنه تقدير للباطن

وفحص لدقائقه وعناصر تكوينه ، فهو على هذا نظـــر عن قرب أو هو نفوذ الى داخل البناء لدراسة تكوينه ومضمونه ومدى اتساق عناصر التكوين مع بعضها ومدى خدمة ذلك التكوين للهدف الخاص الذى أنشىء البناء من أجله وخدمته للهدف العام أو الروح العامة التى تسرى فى كيان المجتمع وتسمه بسماتها المميزة ..

وغاية النقد أن يبصر وينبه ويهدى لما يجب أن يكون بغير أن يلزم أو تكون لديه السلطة القادرة على التغيير ..

ومن مفهومى كل من المراقبة والنقد تخرج بسمـــات مشتركة بينهما وهى :

أولا : أن كلا منهما يفحص ويحلل ..

ثانيا : أن كلا منهما يقيم ويزن ..

ثالثا : أن كلا منهما ــ نتيجـة للوزن والتقييم ــ يتخـذ موقف القبول أو موقف الرفض من الأثر الذى عرض له ..

رابعا : أن كلا منهما يهدف الى ما هو أقوم ..

أما ما يختلف عنده كل من المراقبة والنقد فهو أن المراقبة مشاهدة وفحص للخطوط العامة أو الاتجاه العام .. على حين أن النقد يعنى فى المقـام الأول بتحليل الكيان

الداخلى للعمل واستخراج مدلول كل عنصر فيه ٠٠ والشيء الثانى أن المراقبة تتخذ صيغة المسئولية الرسمية أو الالتزام الرسمى الذى يملك سلطة التغيير والتبديل ٠٠ أما النقد فحسبه التحليل والمقابل والتقييم ٠ ولذلك يصح أن نقول ان الرقيب ملزم لنفسه وملزم لغيره على حين أن الناقــد ملتزم بأصول الفن الذى يتعرض له ويعالجه ٠٠

وعلى هذه التفرقة بين الرقابة والنقد نتناول الفنون الاسلامية ٠٠٠

وقد يتساءل بعض الآحاد :

ما المقصود بالفنون الاسلامية ؟

أهناك فنون خاصة بالاسلام ؟

أهناك فنون لا تتفق وروح الاسلام ؟

أو ليس فى القول بفنون اســلامية أن الاســلام ينفر من بعض الفنون أو ينفر من جانب من الحياة قد تكــون له فيه متعة أو قد تكون فيه سعادة للناس واعانة لهم على ما يعانون ؟

ونقول ردا على ذلك كله : ان الاسلام لا يحرم على الانسان أن يستمتع بمتاع الحياة الدنيا ولا يحجــر عليه بالقمع والكبح والارهاب ٠٠ ولكنه يفتح آفاق الحياة

أمام بصره وفكره فيسعى فيها كيف يشاء اجتناء لما تشتهيه نفسه ولما يجد فيه موطن لذة ومغنم سعادة وذلك بضوابط تحيي الحياة فى نفسه وتحيي الحياة فى مجتمعه وأمته وانسانيته ..

وتتركز الضوابط فى قوله تعالى : « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الأرض ان الله لا يحب المفسدين** » (**٧٧ سورة القصص**) ..

وأول هذه الضوابط أو صمام الأمان لكل عمل هو أن يبتغى الانسان الدار الآخرة : « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة** » .. ومعنى أن يبتغى المرء الدار الآخرة هو أن شريعة الحق تكون منهاجه فيما يعمل ويقدم عليه، حتى يكون جزاؤه فى الآخرة خير جزاء .. وكى لا يستقر فى الأذهان أن ابتغاء الدار الآخرة يعنى تحريم متع الحياة الدنيا أو تبغيضها فى النفوس فان الحق سبحانه يقول : « **ولا تنس نصيبك من الدنيا** » ..

فلكل انسان نصيب من متع الحياة يتفق وعمله وقدرته ومذهبه .. كما يتفق وذوقه وما يحرص عليه .. أجل ، لكل نصيبه الذى قدره له الخالق الرحيم فعلى كل انسان اذن أن يحس فى تناوله فلا يبدده ولا يسرف فيه بل يستغله فيما يعود على فكره وشعوره وجسده بالخير

الذى يرومه .. ويستغله فيما يعود على جماعته القريبة وجماعته البعيد بالخير .. ويستغله فى أن يكون الخير كله عبودية لله وتقربا اليه سبحانه : « وأحسن كما أحسن الله اليك » ..

اما ان أخذ نصيبه من الدنيا الى غير هذه الغاية فذلك هو الفساد الذى لا يضار به فرد انما تضار به الأمة بأسرها .. وما هو أكثر من ذلك ، ان الفساد يعم البشرية كلها : « ولا تبغ الفساد فى الأرض » .. ثم تأتى الفاصلة لتؤكد أن افساد الحياة على أهلها بالايضاع فى الشهوات على نحو يضل ويقوض من دعائم الوجود الحضارى بل ويقوض النماء النفسي للفرد فاذا هو ضال مفسد ، ومجدف منحرف .. ذلك هو أبغض شىء الى الله سبحانه فقد قال : « ان الله لا يحب المفسدين » ..

أجل ، ان هذه الآية الكريمة أو القاعدة العامة بأركانها وأسسها هى المبدأ الذى يجب أن تقوم عليه الحياة وهى المذهب الذى ينبغى الدعوة اليه والعمل به ومن أجله ..

لكن كيف يكون العمل به فى ميدان الفنون ؟

كيف نتخذه دستورا نستهديه سواء الابداع الفنى أو الرقابة على الفنون ؟ لكى نستهتديه دستورا نحتكم اليه عند تقدير الفنون يجب أن نضع فى اعتبارنا أربعة أمور ؟

أولا : سلامة البناء النفسى والفكرى والدينى للفرد ٠

ثانيا : سلامة البناء الاجتماعى فى عقيدته وتقاليده وفكره، وتآصر وحداته ٠

ثالثا : قدرة الطرفين متآصرين ومتعاطفين على النهوض برسالة الاسلام لاسعاد البشرية جمعاء ٠

رابعا : أن يكون الفن لله وفى سبيل الله ٠

وفى ضوء هذه القواعد الأربع المتكاملة يمكننا تحديد مقاييس الرقابة على الفنون الاسلامية ٠٠

مقاييس الرقابة

المقياس الأول

أن يكون الفن دعوة للحياة ..

يقول سبحانه : « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هى أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » (١٢٥ سورة النحل) ..**

ان الفنون فى عمومها متعددة الجوانب والخصائص والاتجاهات ، متمايزة فى محتواها والغاية المقصودة من وراء المحتوى المعبر عنه بهذا الفن أو ذاك .. فالفنان المبدع فى حوار دائم بينه وبين باطنه . والباطن مشاعر وأحاسيس والباطن أيضا أحداث ووقائع مر بها المرء من لدن طفولته الباكرة فشكلت شخصيته وأعطتها سمتها الرئيسية المميزة بل وأعطتها طريقتها العامة فى تناول مسائل الحياة والكيفية التي تسلك بها فى معالجة مشكلاتها .. فهذا الباطن ليس

سويا فيما ينطوى عليه من تيارات ، انه قائم أساسا على مشكلات ربما تكون قد انتقلت فى جانب كبير منها منذ عهد الطفولة فكونت القـــاعدة الأسـاسية لطبيعة الفرد النفسية .

وهذه المشكلات النفسية سواء ما غاص منها فى أعماق اللاشعور أو ما شارف منها خط الشـعور انما هى فى حقيقتها مشكلات امكانيات فطرية كانت تسعى وتصر فى سعيها على أن تتحقق .. ولكنها بسبب القواعد الاجتماعية أو القوانين الاجتماعية التى تتمثل فى التقاليد والاعراف والروح الحضارية العامة ، لم تجد سوى الانزواء فى مكامن اللاشعور فى حسرة متوترة .

وما كانت التقاليد والأعراف مجرد قوالب للسـلوك العام أو صيغ أخلاقيـة محددة يتبعهـا المرء بغير أن يخرج عليها أو يتجاسر بالتفكير فى الخروج عليها . ولكنها أنماط فى الفكر والتصور وتقاليد فى الاحساس والادراك تجعل المرء منذ بواكير أيامه الأولى وهو فى حوار مع الحياة لما لديه من امكانيات عميقة متعددة بقدر عمق شخصيته وتعدد اهتماماته .. ولذلك فانه فى سبيل تحقيق امكانية منها يقع فى صراع أو يجد نفســـه مرغما على الدخـــول فى صراع قد يكون مع ذاته وما نشىء عليه .. وقد يكون مع المجتمع أو مع الناس الذين يحيون معـه فى دائرة واحدة .

وهذا الصراع يأخذ عند الفنان ـ وهو من هو فى

حسه وشعوره وعمق تصوره وانفساح رؤيته ـ صورة تعبيرية تأخذ أبعادها وألوانها ، وتأخذ أضواءها وظلالها ، وتأخذ اتساقها ولحنها من احساس الفنان وشعوره وهو فى صراعه أو وهو فى معاناته التى يغلب أن تكون ذاتية الطابع فردية السمة وجودية النبرة . وهذا يدلنا على أن الفنان اذا كان ابن ذاته وشخصيته فهو كذلك ابن بيئته وزمانه ولذلك فانه من الخطل أن نفصل الفنان عن بيئته أو مجتمعه وعلى هذا المعيار فهو ملتزم أو مسئول أمامه اذن لا يمكن اخراجه من زمانه ووضعه خارج الزمان .

ومن ثم كان لابد أن يكون الأثر الفنى تعبيرا عن زمانه ومجتمعه وصورة لزمانه ومجتمعه .. يجب أن يكون دعوة الى أن يحيا الانسان زمانه ويتمثل مجتمعه ولا يتم له ذلك بغير كلمة هى الحكمة وصورة هى الحكمة ، ولحنا هو الحكمة .. ومعنى هذا أن يكون للأثر الفنى انطباع عميق محدد محكم فى ادراك الانسان وتصوره ، أى أن يكون قادرا على أن يمنح البصيرة الانسانية القدرة على مجابهة الحياة بارادة حكيمة ونظرة عميقة تنشد طريقها فى ثقة واطمئنان .. فلا تؤيسها محن ولا يضلها تناقض الأمور وتخالفها فتسير على غير هدى وتحكم بغير روية مستبصرة .

وربما قيل ان معنى أن يكون الأثر الفنى حكمة وداعيا الى الحكمة وأنه ينبغى أن يقاس بمقياس الحكمة ، هو أننا نقيس الأثر الفنى بمقياس أخلاقى تحكمى أو بمقياس

أخلاقي تحكمي أو مقياس أخـلاقي ضيق عقيم فيه حجر على الفكر والشعور أكثر من أي شيء آخـر .. يبدو أننا نبادر فنقول ان ما نريده من أن يكون الفن حكمة أو تعبيرا عن حكمة هو أن يتجلى فيه صـدق الرؤية وعمقها وأصـالة التعبير الابداعي الذى يعطى بلمحة منه أو بلمحات منه الانطباع الحي للتآلف العضوى لمقوماته سـواء تآلفت فى لحن أو صورة أو تمثال أو قصيدة وذلك كى يعطى الأثر الفنى أملا في الحياة وثقة في الغد ، وما هو أكثر ، يعطى الوعى يقظة والضمير حركة مستنيرة والارادة تصميما على العمل واصرارا على الحيـاة ..

فاذا استطاع الفنان أن يظهر هذه المعاني أو يجسد هذه المعاني ، أو على أقل تقدير يترك أثره الفنى فعله فى الوجدان والخيال فقد استقام الأثر الفنى وما أريد منه .. واستقام قبل كل شيء مفهوم الحكمة وهى الدرجة الأولى من المقياس الأول الذى ذكرناه ..

ويمكننا أن نضيف الى ما سبق أنه اذا كان يجب أن يكون الفن دعوة الى رؤية حكيمة فذلك أن الرؤية الحكيمة التى يقتضيها المقياس الاسلامى فى مراقبة الفنون لا تحجر على الذات كما يتوهم المتوهمون الذين يظنون أنها ـ أى الرؤية الحكيمة ـ لا تتيح للذات الانطلاق التلقائى الحر .. ذلك الانطلاق الذى تستخرج منه الذات ذخر مكنونها من الأحلام والارهاصات وذوب عبقريتها المحلقة فى أجواء فوق أجواء من الابداع الفنى المنقطع النظير .. وبذلك ينجو الفن

من التحكم الأخلاقي الذي يحكم على نضرة الفن بالاعجاف والذبول لأنه فوق اخماده لحيوية الانطلاق الذي يحيي المضمون فانه يجعل الفنان أسير النماذج التي رضيت عنها أخلاق الجمود ٠

وقد عرض جون ديوى لخطورة الوقوع في أسر النماذج الخالدة للفنون فقال : « ان الاستناد الى قواعد انما هو صورة واهنة مشوهة لاعجاب مباشر سابق بعمل بعض الشخصيات البارزة اعجابا قد استحال في خاتمة المطاف الى ضرب من الاسترقاق أو العبودية ٠ ولكن سواء أكانت المعايير والقواعد والارشادات قائمة بذاتها على حسابها الخاص أم مستمدة من روائع الفن العالمي فان المؤكد أنها عامة في حين أن موضوعات الفن فردية وآية ذلك أنه لا موضع لتلك المعايير أو القواعد في صميم الزمان وهو ما نعبر عنه بسذاجة حينما نقول انها أبدية ٠٠ ومعنى هذا أنها لا تنتمي الى شيء قائم هنا أو قائم هناك وحين تنطبق على كل شيء فانها لا تنطبق بصورة خاصة على أي شيء » ٠ أما أن مبدعات كبار الفنانين والعباقرة ضرورية كنماذج للتمثل والسير على هداها وكآيات على مدى ما يمكن أن يبلغه الكمال الانساني في عالم الفنون ٠ فتلك ضرورة حيوية سواء بالنسبة لمعرفة الدلالة الحضارية والتاريخية لتطور الفن أم بالنسبة لتعلم الفن ذاته ٠٠ ذلك لان الفنان لا يخلق من فراغ والفن لا يأتي من عدم ٠

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان الفن حياة ، وحياة الفن تاريخ وأطوار ٠٠ والتاريخ وجود متصل وزمان متواصل لا يفهم لاحقه بغير معرفة سابقه ، ولا يدرك لاحقه بغير أن يحيا الانسان ذلك السابق أو الماضى ٠٠ ومن هنا تصبح آثار الخالدين من الفنانين آيات استهداء واستلهام وتمثل ٠ وتبقى بعد ذلك ـ وقبل ذلك ـ حرية الانسان فى الانطلاق فى عالم المبدعات والتكوينات ٠

ولذلك فان على الفنون الاسلامية أن تضع أمامها هذه الدرجة الأولى من المقياس الأول ٠ تضعها متوافرة ظاهرة سماتها فيما تترك من آثار وأن تكون عارمة فى الحس التذوقى للفنان فلا تغيب عن تصوره قبل الابداع ولاتشذ عنه خلال عملية الابداع ذاتها ٠٠ وتلك الدرجة من المقياس كما ذكرنا هى أن يكون الفن دعوة الى سبيل الله بالحكمة : « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة** » ٠٠ وسبيل الله هو سبيل الحياة كأشمل ما تكون وأعمق ما تكون وأعظم ما تكون ٠٠ فلا كبح ولا ارغام ولا استهانة قاتلة بالذات الانسانية ٠٠ لكنما الوجود كله بسمواته وأراضيه ، بأقطاره كلها وظواهره كلها مفتح الابواب للذات تفتن حسبما تشاء وتبدع كيفما تشاء فتأتى بآيات فنها وابداعها صورة وأنشودة ولحنا وتمثالا ٠٠ فان حلقت الذات بخيال خصيب منطلق بين أقطار السموات والأرض وهى واعية بأنها تحلق فى سبيل الله وبين آيات الله ٠٠ وهى واعية أيضا بأنها بالفن انما تشارك فى هموم مجتمعها وأمتها فتستخلص اللمحة

المحكمة من بين مضطرب الناس وأحوالهم ومن بين آمالهم وما يقاسونه ويحتملونه : فلا سبيل اذن الى التبعية أو الامعية ولا سبيل كذلك الى التحجر الذى يؤدى الى نضوب الشعور وجفاف الذوق وانحراف التقدير ..

وليست درجة الحكمة وحدها هى ما يجب أن تكون عليه الفنون الاسلامية ، وليس مقياس الحكمة هو ما يجب أن تقاس به الفنون جميعها .. انما هناك درجة ثانية تقاس بها نوعية أخرى من الفنون ، فاذا كان من الفنون ما ينبغى أن تكون دعوته فى سبيل الله تعبيرا عن الحكمة فان منها ما ينبغى أن يكون تعبيرا عن موعظة حسنة . فكيف تقاس الفنون بمقياس الموعظة الحسنة ؟

ان هذه الدرجة الثانية أو هذا المقياس يبدو غريبا عند بعض الناس وربما عدوه اعتسافا ما يجدر بالفنون أن تنضوى تحته أو تقع فى دائرة حسابه ، فهو بالواعظين أجدر وأليق .. أما الفنون فلها شأن آخر أو مقياس آخر .

ولازالة هذا الوهم أو هذا الاشفاق فاننا نقول : ان الفنون جميعها تقبل فى جانب منها مبدأ الموعظة الحسنة .. وان بعضها ليقوم أساسا على مبدأ الموعظة الحسنة وان غلبت عليه أو سادته طبيعته الفنية . فالفن المسرحى مثلا – أو التمثيل بعامة – ينطوى بين ثناياه أو تضاعيفه على مواعظ منثورة هنا وهناك وان لم يقصد المؤلف الى ذلك قصدا .

فالتراجيديا أو المأساة هى فى صميمها موقف انسانى من الحياة يشتجر فيهـا الصراع ويحتدم النزاع وتختلط الغايات والمذاهب كما تختلط الوسائـل التى يصطنعهـا الناس فى صراعهم ‥ وهم فى ذلك الصراع يكشفون عن نفوس متفاوته فى أخلاقها ، ومتناقضة فى نظراتها للحياة وتقديرها لها وما ترجوه منها ٠ ومن خلال الصراع المأساوى المتمثل فى الحوار والذى يعطى بحيويته الصادرة من تطويع اللغة لتصوير الانفعالات النفسية تصويرا حيا صادقا قادرا على استثارة المشاعر والخيـال والفكر وقادرا على تجسيد أحداث الحياة وتحركاتها ‥ من خلال ذلك الصراع تتضح لنا طبيعة رؤية الفنان للموقف المأساوى الذى وقع عليه اختياره فاتخذ منه مادة لعمله ٠

وبهذه الرؤية نستطيع أن نحكم على موقف الفنان من الحياة فى عمومها من خلال الموقف الجزئى الذى اختاره ‥ وهو قد لا يلقى بموعظته صريحة على ألسنة شخوصه وقد لا ينطق أفواهم بحكمة بالغة سواء أكانت حكمة غالبة أم حكمة مغلوبة : حكمة القوى الذى لا يؤمن بغير القوة ، أم حكمة الضعيف الذى يعتصم بالتقية والحـذر ، أم حكمة النهاز المنافق ‥ قد لا تنطق الشخوص بالموعظة صريحة ولكن أحداث المأساة وتطوراتها تعطى أحكم المواعظ وأبلغها فيدركها المرء بوعيه فتفعل بوجدانه وضـميره أكبر مما تفعله ألف حكمة صريحة ٠

ثم تبقى الغاية من تصوير الصراع وازاء ذلك تتعدد الغايات وتتناقض المقاصد ..

وهنا يأتي دور المقياس الاسلامى ليحدد موقفه من المأساة بالنظر الى موقفها من المجتمع وآثارها التى يمكن أن تخلفها فيه .. فمن المآسى ما يستعيرها أصحابها من الفكر الغربى ، يستعيرونها بما فيها من صراعات تدفعها ومذاهب تحركها وتعطيها مسارها العام .

ووجه الخطورة هنا هو أن المأساة قد تنقلب من موعظة كانت تتسق ومجتمعها الذى انبثقت منه الى فتنة تهدد الكيان الاسلامى فى بنائه النفسى والفكرى .. ولا غضاضة فى الاستعارة ولا خوف منها غير أنها حين تصبح استعارة للأفكار والمذاهب فانها تنقلب بغير أن يدرى أصحابها الى أبواق تنذر بأوخم العواقب أو الى آفات تفتك بأركانه وعمده التى يقوم عليها .

وربما غفل أصحاب الاستعارة أو الاقتباس عما يعملون وعما قد يؤدى اليه عملهم أو فنهم الذى يقدمونه . فمن المؤلفين من يكلف بمذهب سياسى معين لا يلتقى مع الاسلام على شىء ولا يلتقى معه فى شىء .. فهو يسخر المذهب السياسى وهو فى ذلك يتراوح بين الشطح فى التصور أو الاغراق فى التشاؤم أو الترويج لما يريد ترويجه واثارته ، متخذا من طوائف المجتمع وطبقاته مادته التى يصطنعها فى ابداع المأساة أو اختلاق المأساة .

وربما كانت المأساة فكرية تجسد اصطراع الانسان مع قوى الشر والبغى .. وربما صور المؤلف هذه القوى على أنها قوى غيبية لا حيلة للانسان فيها ، لا حيلة له الا أن يرضخ ويستسلم .. وقد تثير هواجسه وظنونه فيظن أنه لعبة في يد مقادير تعبث به عبثا جنونيا ..

وربما انتهت به الظنون الى الانكار والتعطيل الذى قد يؤدى الى تشاؤم انحلالى فى الأخلاق والآداب .. ولكن مثل تلك المآسى التى قد يقال عنها انها مآسى فكرية أو مآسى وجودية تصور صراع الانسان من أجل الانعتاق من ربقة الدين أو من ربقة العقيدة .. هذه المآسى لا تفعل شيئا سوى أن تبقى على السؤال الذى حيرها وهو :

هل هذه المآسى تغنى الحياة بما تقدمه ؟

أهى تغنى حياة الفرد فلا انكار ولا تعطيل ؟

أهى تغنى حيـــاة الفرد فلا فكر مجـرد من الحياة والمضمون الوجودى للخلق والتشييد ؟

أهى تغنى الانســان فــلا ينزع بـه الفكر الى عزاء اللامبالاة أو عزاء التشاؤم والبائس اليائس ؟

هل هذه المآسى تحيى فطرة الحب فى الانسان ، والحب تعاطف وتآصر وتواد ؟

هل هذه المآسى تبعث فى الانسان والناس أجمعين

فطرة التفاؤل قوية راسخة فينهضون للعمل والتصحيح والبناء ؟

هل هى تبعث فى الانسان نزعة انسانية شمولية ؟

ان من شأن التعبير الفنى كما يقول جون ديوى : « أن يضرب على الحواجز التى تفصل الموجودات البشرية بعضها عن بعض . ولما كان الفن هو أشمل صورة من صور اللغة ، بل لما كان قوام الفن ـ حتى اذا تركنا الأدب جانبا ـ هو الكيفيات العامة للعالم المشترك فليس بدعا أن يكون الفن أكثر صور الاتصال كلية وحرية .

والحق أن من شأن أية خبرة حادة من خبرات الصداقة أو المحبة أن تكمل ذاتها بطريقة فنية . وقد يتخذ الاحساس بالمشاركة الذى يولده لدينا العمل الفنى صبغة دينية حاسمة .. وان اتحاد البشر مع بعضهم لهو الأصل فى ظهور الطقوس التى عملت ـ منذ العهود السحيقة للانسان القديم حتى وقتنا الحاضر ـ على احياء ذكر أزمات الولادة والموت والزواج ـ والفن انما هو امتداد لقوة الطقوس والاحتفالات على توحيد الناس ـ ومن خلال التمجيد المشترك ـ الى سائر أحداث الحياة ومشاهدها ـ وهذه المهمة هى جزاء الفن أو مكافأته من جهة وهى خاتمه أو طابعه الخاص من جهة أخرى . وانه لمن الحقائق المعروفة أن الفن يزاوج أو يؤلف بين الانسان والطبيعة .. ولكن من شأن

الفن أيضا أن يشعر الناس بما يجمع بينهم بعضهم الى بعض من وحدة الأصل ووحدة المصير » ..

ولذلك فاننا نقول : على أية شرعة يجب أن تلتزم المآسي في الايحاء للانسان بأن يدبر لحياته ومجتمعه وأمته ؟

أفان قامت لتحقيق هذه المعاني على أساس من شريعة الحق سبحانه ، وبروح من هدى القرآن فانها تكون بغير شك محققة للدرجة الثانية من المقياس الأول ، ونعني بها درجة : « الموعظة الحسنة » ، نصـــا وروحـــا ، شــكلا وموضوعا .. وكانت المأساة على هذا المنهاج جديرة بأن تكون فنا اسلاميا أصيلا ..

واذا كان للموعظة الحسنة أن تأتي في اطار المأساة فانها أيضا يمكن أن تأتي في اطار الملهاة أو الكوميديا ..

وفي الكوميديا تكثر وجهات النظر وتتعدد المقاييس تبعا لذلك .. ومن المعروف أن الطابع العام للكوميديا هو الحوار الفكاهي الســاخر الذي ينشأ للتسرية والتسلية والاضحاك ..

والسخرية لا تكون من موضوع واحد يبعث عليها ، ذلك لأن السخرية ضروب وأنواع فما من موقف من مواقف الحياة الا وهو داعية الى السخرية .. وما من قضية من قضايا الوجود الا ويمكن أن تكون محركة لنزعة الضحك والغمز واللمز ..

ألم تكن حركات التحرير هدفا لسخرية المتسلطين الظالمين ؟ ألم تكن رسالة الأنبياء والمرسلين هدفا لسخرية الكافرين والجاحدين ؟ ، بلى ، قال سبحانه : « **ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون • واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين • واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون » (٢٩ : ٣٢ سورة المطففين) •**

فالضحك فطرة انسانية واصطناع وسائل التعبير عن هذه الفطرة عمل اكتسبه الانسان من أزماته ومشكلاته التى عاناها ومر بها •• وحتى ان لم تكن هناك مشكلات فان الفكاهة تبقى – كتعبير فنى – من أعمال الانسان التى تزداد مع الأيام اتقانا فى التأليف وبراعة فى البناء •

واذا كان الضحك فطرة انسانية مغروزة فى أصل جبلة الانسان وكيانه فانها بذلك تكون امكانية مواقف أى امكانية تتحقق فى حيز المواقف التى تثيرها وتبعث اليها •• ومعنى ذلك أنه لابد من توافر ثلاثة عناصر أساسية لكى تقوم الفكاهة ، وهى :

أولا : أن تشبع فطرة الضحك ••

ثانيا : أن تواجه الموقف ••

ثالثا : أن تكون صادقة فى معالجة الموقف لأنه تحقيق وجودى لعمل انسانى •• وما لم تفهم الفكاهة على هذه الأسس •• وما لم تتحقق هذه الأركان الثلاثة فى أى عمل فكاهى أو كوميدى فان الكوميديا تصبح تهريجا وعبثا •

ولقد كانت اجابة رسول الله صلى الله عليه وسلم على صحابته رضوان الله عليهم أبلغ دلالة على الحاجة الى الفكاهة وعلى ضرورة أن تكون الفكاهة صادقة وحقه .. فقد قالوا له : « انك تداعبنا ، فقال : وانى وان داعبتكم لا أقول الا حقا » ..

ومن مواقف المداعبة الحقة ما روى من أن عجوزا أتت النبى صلى الله عليه وسلم وقالت له يا رسول الله : ادع الله لى أن يدخلنى الجنة ، **فقال لها** : « لا يدخل الجنة عجوز » .. فبكت ، فقال : « انك لست عجوزا يومئذ ، قال الله تعالى : « **أنا أنشأناهن انشاء فجعلناهن أبكارا** » ..

ومن هذا المنطلق ، منطلق الحق ينبغى أن تصدر الكوميديا كعمل فنى متكامل فى بنائه حسب الأصول التقليدية ـ أو ما يمكن أن يستحدث من طرائق ـ فى تأليف الروايات الكوميدية ..

واذا كانت مشكلات الناس فى دوائر أعمالهم ومجالات شغلهم واهتمامهم هى المصدر الذى لا ينضب لكل أنواع الفنون فان الكوميديا تحظى بنصيب ربما زاد على نصيب فن المأساة .. ومن ثم كان خطر الكوميديا عظيما ولذلك فانه لكى تصبح الكوميديا عملا فنيا له وزنه وتقديره فانه لمن الضرورى أن تكون « موعظة حسنة » .. فتتناول مشكلات الناس تناولا فنيا مترفعا عن السطحية والغوغائية حتى تضمن الانطباع الكوميدى الصادق فى نفوس الناس .. ويكفى أن يجسد المؤلف المشكلة فى بناء كوميدى يثير

المشكلات ويفجر المتناقضات بغير أن يقدم حلا أو مخرجا ٠٠ يكفى هذا تنبيها وتذكرة مع الصدق فى القصد والعرض لكى يكون العمل صادقا اصيلا ٠٠

والصدق لا يعرف مجون التهريج ٠٠ والحق لايعرف الاستخفاف بعقول الناس ٠٠ والتصوير الكوميدى للأحداث قد يجنح الى المبالغة ، ولا حرج فى المبالغة اذا قصد بها التنبيه على الخطر ٠٠

والتجسيد الكوميدى قد يجنح الى الاغراب ولا جناح فى ذلك أيضا ، الا أن يكون الا غراب ضربا من السخف الذى يمجه الذوق ويزدريه الخيال ٠٠

وسواء فى المبالغة أو الاغراب لا يجدر استرضاء غرائز الجسد عند الناس بالألفاظ الفاحشة ، وما أسهل ايراد الألفاظ الفاحشة المسفة فى مجال الكوميديا ٠٠ لكن اذا ترفع هذا الفن عن الألفاظ البذيئة النابية والحركات البذيئة النابية ، هذا مع مراعاة المبادىء الثلاثة التى ذكرناها أنافا وهى : اشباع فطرة الضحك ٠٠ ومواجهة الموقف ، والصدق فى مواجهة الموقف ، فماذا يبقى اذن سوى أن تكون الكوميديا موعظة حسنة ؟

ولقد يسأل بعض الآحاد : أو يمكن أن يطبق مقياس « الموعظة الحسنه » على فنى الموسيقى والتصوير ؟

واذا صلح تطبيقه فهل يمكننا اذن أن نقول بموسيقى اسلامية وتصوير اسلامى ؟

ونقول : نعم : هناك ويجب أن يكون ، رغم أن البعض قد يستغرب هذا القول وربما استخف به .. فما من ريب في أن لكل وطن أو مجموعة اقليمية من الأوطان المتقاربة في أصولها وعروقها تمايزا موسيقيا تعرف به .. فالموسيقى الشرقية لها طابعها الذى تتفرد به ومع ذلك فاننا نستطيع أن نفرق بين الموسيقى العربية المصرية والموسيقى الهندية وكذلك الروسية . وذلك ما نجده أيضا بالنسبة للموسيقى الغربية والألحان الكنسية الغربية.

واذا كان هذا هو شأن الموسيقى الشرقية والغربية أفلا يكون اذن سببا فى أن تكون لدينا موسيقى اسلامية تتميز بالطابع الاسلامى ؟ بلى ، ولعل التواشيح الدينية وبعض المقطوعات الموسيقية الدينية تكون بداية صالحة لوضع أساس لموسيقى اسلامية .. على أنه يجب أن نضع فى اعتبارنا أننا حين ندعو الى موسيقى اسلامية فاننا لا نقصد الى وضع الموسيقى فى القوالب التقليدية التى عرفت بها أغانينا وتواشيحنا الدينية ..

اننا ندعو الى أن تكون هناك لمسات اسلامية تشيع في اللحن الموسيقى ثم ترتفع بسماتها الاسلامية لتعبر عن المشاعر الانسانية والأحلام الانسانية والذكريات الانسانية متسامية على العبث الجنونى والهوس الاخرق الذى يفسد المشاعر ويضل الاحلام ويخرب الذكريات ..

ونفس هذه الدعوة نرجوها للتصوير : فليستخدم

المصور ما يفضله من طرائق التصوير ومذاهبه ·· **أما أن** يسخر فنه فيجعله مسخا شائها لجوعات الجسد أو يجعله تعبيرا عن حقد طبقي يثير ويدمر ، فلا ينشيء علاقة حياء أو يحض على عـــلاقة اخاء ، أو يجعله دعوة الى الخنوع والاستكانة فيحبب اليهما بما يقدمه من ألوان وأفكار ·· كل ذلك ليس من الموعظة الحسنة في شيء ·· والموعظة الحســنة حيــاء واحيــاء ·· ودعاء قنوت لباريء الأرض والسماء ·· أما الدرجة الثالثة من المقياس الأول الذى نقيس به الفنون فهى قوله تعالى : « **وجادلهم بالتى هى** أحسن » ··

ولقد قلت في مستهل هذا المقياس أن الدعوة فى سبيل الله حوار ، وقد يكون الحوار بين الفنان والناس ، وقد يكون بينه وبين أعماق ذاته ، وربما كان بينه وبين الطبيعة بظواهرها وأحوالها ·· والفنان فى هذا الحوار المتعدد في شكوله اذ ينشيء فنونا من التعبير ينبغى أن يكون معياره في الحوار قوله تبارك وتعالى : « **وجادلهم بالتى هى أحسن** » ·· فالحركة تكون نابضة بالحياة عامرة بالمشاعر والأحاسيس تعنف فى موقف العنف والزجر ، وتلين اذا اقتضى الموقف لينا ومصانعة ·· وتعمر الظلال والأضواء بالفكر يتهادى بين المناظر فى حياء يغرى بالنظر ويحبب المشاهدة والتأمل · فلا يصدم الوجدان بحدود الصراحة الفكرية فتتبدد النفحة العاطفية التى هى قوام الابداع الفنى والتأمل الفنى ·· وذلك كله بغير اسفاف

أو مغالاة أو ارتفاع فوق مستوى العقول والأذواق بحجة التعبير الذاتى المتعالى على دنيا الناس ..

نعم ، ويبقى ما ينطوى عليه الضمير من وراء العرض الظاهر للفنون ، يبقى أمانة يسأل عنها الفنان أمام الله سبحانه .. وهذا هو صمام الأمان الذى يحمى من الزيغ وراء نزغات الضلال والاضلال وما أكثرها فى عالم الفنون ، يقول سبحانه : « **ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** » ..

المقياس الثانى :

أن يكون الفن اذكاء لمشاعر الناس وأفكارهم واصلاحا لأحوالهم ومنافعهم .. يقول سبحانه : « **فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال للناس** » (**١٧ سورة الرعد**) .

ولقد يقال ان هذا المقياس نفعى فهو من ثم يقدر الفن أو الأثر الفنى بما يأتى به من أموال أو بما يحققه من أرباح وذلك يؤدى الى التدهور فى أصالة الابداع الفنى فتتجه الفنون الى السوقية والابتذال ومخاطبة غرائز الجماهير وأهوائهم ..

ونبادر فنقول : ان المنفعة مطلوبة والسعى الى طلب الرزق فريضة والتمتع بالحياة واجب لا يبغض فيه ..

فهى – أى متع الحياة – من أسس العمران والاجتماع ، يقول سبحانه : « **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون** » (**٣٢ سورة الأعراف**) ..

فالضابط اذن أن المعيار القويم هو الايمان بالله ، والايمان بالله جمال ووضوح ورصانة .. أما قوله سبحانه : « **وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض** » ، فهو يمثل أحكم الضوابط وأبعدها أثرا فى اثراء حياة الناس واثراء الفنون .. فالفنون ينبغى أن تكون لنفع الناس لا لنفع طبقة أو عصابه ، فليس ها هنا شح حقود أو أنانية .. ولكنه تفتح وحب للناس أجمعين . وهـذا يؤكد عنصر الشمول الذى يجب أن تتضمنه الفنون ، أى يجب أن توحى بما يجمع بين البشرية من وحدة الأصل والمشاعر والمصير ، وبذلك تزكو عواطف الناس وتتأصل ارادتهم فلا تقهرهم المحن فتفقدهم الثقة فيمن حولهم وما حولهم .. وربما أفقدتهم الايمان بخالقهم وتلك هى المحنة الكبرى .

المقياس الثالث :

ضرورة الالتزام ..

يقول سبحانه : « **وقل اعملوا فسـيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشـهادة**

فينبئكم بما كنتم تعملون » (١٠٥ سورة التوبة) ..
ومقياس الالتزام مقياس متهم عند الكثرة الغـــالبة من المفكرين فهم يرون فيه نوعا من الارغام على اتباع مذهب معين من مذاهب السياسة أو الاجتماع . وســواء أرغم الفنان على الالتزام أو الزم هو نفسه اعتقادا واقتناعا فان ذلك من شأنه أن يجعل نظرته قاصرة عن أن تتشوف الى ما بعد الحدود التى رسمت له أو الى ما وراء الأفق الذى يجوز له أن يتخطاه .

وفى ذلك اضعاف لملكة الخلق والابداع واضـــلال للبصيرة الفنية عن أن ترى الرؤية الصادقة فتسجل رؤيتها عملا فنيا رائعا خالدا .. أما الاسلام الحنيف فانه يقدم الآية السابقة كمقياس للالتزام وكمعيار تقاس به أصالة الفنون . فهو يحيط العمل بضوابط من الايجابية المطلقة وذلك بأن جعل الانسان مسئولا عن عمله مسئولية كونية ــ ان أجيز هذا التعبير ــ أى ملتزما بأداء عمله على أكمل ما يكون وأصل ما يكون .. وفى حدود طاقته بطبيعة الحال .

وهذه المسئولية الكونيـــة أو هـــذا الالتزام الكونى شمولى بكل معانى الشمول .. فالانسان مسئول أمام الله قبل كل شيء ومسئول أمام قائد الأمة ورائدها ، ومسئول أمام المؤمنين أى المجتمع بأسره . فاذا بلغت مسئولية الفنان هذه الدرجة فان آثاره تصبح كفاء هذه المسئولية أى تصبح كونية خالدة يتأثر بها الفرد والجماعة والبشرية .

اذن أفلا يكون ذلك حافزا لعبقرية الفنان لكى تبدع وتأتى بالروائع التى تسعد وتحيى وتعاطف بين الناس ؟

أفلا يكون ذلك اطلاقا لحرية الفنان حتى تحلق فى أعمق الجواء وأسماها بدون أن تخشى بأسا أو رهقا ؟

انه نوع فريد من الالتزام .

التزام يحرز الفن من قواعد الجمود ..

ويحرر الفكر من اسار التقاليد ..

ويحرر العواطف من سورة الشهوات المدمرة ..

وتبقى بعد ذلك مسئولية الفنان التزاما يحاسب عليه : « وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » ..

فلننظر الى الفنون فى ضوء هذا الالتزام القرآنى ولنقوم كلا منها على أساسه فان استقام واياه ، فأحيا مشاعر الايمان وارادة العمل فى الانسان فكأنما قد أحيا الناس جميعا .. وان كان على غير ذلك فقد وجبت المراجعة والمحاسبة ..

هذه المقاييس الثلاثة هى التى نراها ضرورية فى مراقبة الفنون الاسلامية فنحاسب الفنان على أساسها ويحاسب هو ذاته على أساسها عند الابداع والانشاء .

جدود الرقابة

واذا جاءت المقـــاييس على هــذا النحو من العمق والشمول .. واذا جاءت على هذا النحو من التأثير فى الفنون .. فكيف تكون الرقابة اذن ؟

هل معنى ذلك أن ليس للرقابة حدود ؟

هل معنى ذلك أنها تندفع بغير هوادة أو رحمة تفند وتلغى ؟

أم تندفع فى الترويج لمذهب من المذاهب غير عابئة بما يجره من مشكلات ؟

ان المقاييس الاســـلامية التى جئنا بها من القرآن الكريم هى بطبيعتها التى تضع حدود الرقابة على الفنون ومع ذلك فاننا نأتى من القرآن بما يجب أن تكون عليه حدود الرقابة ..

فالقاعدة العــامة للحدود هى قوله تبارك وتعــالى : **« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس**

ويكون الرسول عليكم شهيدا » (١٤٣ سورة البقرة) ..
وفرق بين الحدود والقيود ، فالحدود ضـــوابط تنظم للفنان عمله وتقيه ســقطات الجموح أو الجمود .. أما القيود فانها تحول دون انطلاق الفكر والخيال الى الخلق والابداع فتحبسهما فى قوالب متحجـرة فارغة من الحس والحياة .. ان القيود أحكام نهائية لا سبيل الى ردها أو المماراة فيها وذلك أمر خطير بالنسبة للرقابة على الفنون وبالنسبة لحياة الناس الذين يشاركون فى الابداع الفنى بصورة أو بأخرى . .وهذا ما نبه اليه جون ديوى فهو يقرر : « أن الحكم حين يكون قضائيا أو حين يكون من شأنه أن يقطع فى الأمور قطعا جازما فانه عندئذ انما يغلق السبيل أمام تجدد الطبيعة البشرية على العكس من ذلك الحكم الذى ينمو ويتطور فى مضمار الفكر كادراك واع قد تحقق بنفاذ وعمق ..

والخبرة الأصيلة الوافية ليست بالامر اليسير الذى يسهل الوصول اليه بل أن تحصـــيلها لهو محك لقياس الحساسية الأصلية (أو الفطرية) ومدى نضج الخبرة من خلال الاتصالات الواسعة . هذا الى أن الحكم من حيث هو فعل نضطلع فيه بالبحث المحكم المضبوط انما يطلب حصـــيلة ثرية وبصـــيرة منظمة وانه لمن الأيسر لنا أن «نخبر» الناس بما ينبغى لهم أن يؤمنوا به عن أن نعنى أنفسنا بمهمة التمييز الوحيد .. ولا شــك أن الجمهور

حين يعتاد هو نفســه أن يتلقى أحــكامه بدلا من أن يدرب على البحث التأملى فانه عندئذ سرعان ما يؤثر طريقة تلقى الأحكام » ..

فحدود المقاييس ينبغى أن تكون وسطا فاذا كان الفن ينادى بالعقل والتعقل فيجب أن تكون للصــبغة العقلية حدود .. فتكون العاطفة متكاملة مع العقل فلا يطغى أحدهما على الآخر ، و لايستأثر أحدهما باخراج العمل الفنى الى واقع المجتمع .. ذلك لأن العقل اذا طغى انقلب العمل الفني الى قضايا منطقية تصرف العين - أو الأذن - عن متابعة المشــاهد وتزهم النفس عن التمتع بجمال الحياة .. والفنون جميعا تعبير عن الاحســاس بالحياة وبجمال الحياة ..

وكذلك العاطفة انها اذا طغت على العقل أصــبح العمل الفنى دعوة جامحة الى التطرف فى أخذ أسـباب الحياة فلكل امرىء أن يترك نفسه لتلقائية الغرائز فيفعل ما يشاء كيف يشاء .. بل ان فى طغيان العاطفة تضييع معالم الحقيقة وسط الجموح الانفعالى الذى يلف ملامح الأثر الفني بضبابه وذلك هو الغموض الذى يحير ويشكك .. بل ويفقــد الأثر وجــوده وحدوده ووجهته ولــو فى الخيال ..

واذا كانت مقاييس الرقابة الفنية تدعو الفنان الى تجسيد النواحى الجمالية من الحياة فيكون عمله محييا

للارادة والفكرة باعثا للنفس أن تأخذ بنصيبها من الحياة فانه ليجدر ألا يصبح الأمر دعوة الى الترف ٠٠ فالترف باب الانحلال بل هو السبيل الى « استيراد » فنون التعبير الجمالية التى تضرم أشواق الحواس ، فاذا أوطار الجسد هى محور التفكر والتخيل وهى واقع الناس الذى يحيون له ويزينون له ، يقول سبحانه : « **واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسـقوا فيها فحق عليهـا القول فدمرناها تدميرا** » (**١٦ سورة الاسراء**) ٠٠

وهناك علاقة وثيقة بين أن يكون الفن مصورا لحياة المترفين العابثين وبين نزعة الحقد التى يمكن أن تستولى على نفوس المستضعفين نتيجة لما يشعرون به من مرارة الفاقة والحرمان ٠٠ وقد يقال أن الفنون التى تصور دنيا المترفين تثير فى الكادحين نزعة الثورة من أجل حقوقهم وكرامتهم ولكن ذلك أبعد ما يكون عن الصواب ٠٠ انها لا تثير سوى الحقد المستسلم الخانع ذلك لأنها ـ أى فنون الترف ـ لا تقدم سوى عالم المترفين ـ وهو عالم التفاخر والخيلاء ـ وكأنه قدر لا حيلة فى دفعه ولا رجاء فى تغييره واذا كانت الفنون فى عمومها دعوة الى الحب والتآلف أو التعارف ٠٠ واذا كانت أيضا دعوة الى العمل والنضال فينبغى من ثم ألا تنقلب دعوة التآلف الى مصانعة ولا دعوة الصفح الجميل الى نفاق ٠ ولكن على الفنون أن تكون تمثيلا للاحساس بالجمال ٠٠

والجمال حق وخـــير • •فهو لا يعرف الممالأة أو المداراة ••

وهذا من الحدود التي يجب على كل فنان أن يلتزم بها ؛ يقول سبحانه : « **ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا** » (**١٤٢ سورة النساء**) ••

ولقد قلنا ان الاسلام لا يحجر على عواطف الناس فيبغض اليهم الجمال ، ويســـتنكر الفكاهة الحلوة ، ولكنه يبيح ــ بل يفرض ــ كل ما يحيي في الانسان نضرة الحياة ويفتح لقلبه آفاق الوجود ويجعل عمله أصـــيلا راسخا يمكث في الأرض فينفع الناس ••

ومن هنا كان شرطه وحده ألا تكون الفنون دعوة الى العبث والمجون ؛ والعبث صنوف وصنوف : فهناك عبث السياسيين بوعي الجماهير ومستقبلهـــا ، وهنـــاك عبث المذاهب الفكرية بعقول المثقفين •• وهناك عبث الشعراء والموسيقيين والكتاب • •

ولذلك ، ولخطورة العبث على ثقة الناس فيما حولهم ومن حولهم وما يمكن أن يحدثه من فتن وأرزاء فان القرآن يحذر من العبث ويذكر بخطورته في نفس الآن ؛ يقول سبحانه : « **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون** » (**١١٥ سورة المؤمنون**) ••

وانه لعبث من العبث ومجون من المجون أن تكون الفنون دعوة صريحة الى الفحشاء والمنكر ، اما تقليدا لفنون « مُستوردة » من « الخارج » لا تراعى تقاليد الأمة الاسلامية ولا أخلاقها ومبادىء دينها وشريعتها •• واما صـــدى لنفوس مريضة أذلتها عقد قديمة أو انحرافات أخلاقيـة غائرة فى سواء الضمير ••

وهنا لا بد أن يكون الحد الذى يقف عنده الاقتباس من فنون الغرب ، وأن يكون الحد الذى تقف عنده أهواء النفس ، صارمة •• فلا محاباة ، ولا مجاملة ، ولا مهادنة ، يقول سبحانه : « **ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون** » (**١٩ سورة النور**) ••

ولمن تكون الرقابة ؟

ثم يأتى السؤال الأخير

من ذا يكون له حق الرقابة على الفنون الاسلامية ؟

من ذا يكون له الحق فى مراقبتها حتى لا تنحرف .. فاذا انحرفت كان له ـ بل عليه ـ أن يعيدها الى الطريق بالوسيلة التى يضمن بها تقويمها وعدم العودة الى جموح الانحراف ؟

من يستطيع ؟ أو من له الحق ؟

لقد أشرنا الى ذلك فى مستهل كلامنـا عن الرقابة والنقد .. ونزيد الأمر ايضاحا فنقول : ان الرقابة أولا وقبل كل شيء انما هى للدولة ، فهى الحفيظة على سلامة الأمة وهى الرقيبة على كل ما يتهددها أو يجور عليها . ومن ثم كان على الدولة أن تعين « هيئات » لها السلطة فى مراقبة الفنون ولها القدرة على مراقبة الفنون وأن تكون

ملتزمة بقوله تبارك وتعالى : « **ولتكن منكم أمة يدعون الى الخـير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (١٠٤ سورة آل عمران) ..**

فالرقابة الفنية الاسلامية دعوة الى الخير .. والدعوة الى الخير فى عالم الفنون تقدير للجمال واشادة به وتشجيع عليه ، وحرص على ازكائه وانمائه .. والأمر بالمعروف توجيه وارشاد كما أنه دعوة الى الاطلاع على الفنون عند الأمم المتقدمة فنقتبس ما هو نافع لأمتنا ونطوع ما يتفق وأخلاقنا وتقاليدنا ومستقبلنا ..

أما النهى عن المنكر فله عدة سبل : فقد يأتى تحذيرا مما يستهوى الأذواق ولا يعقب غير الفساد والانحلال ..

وقد يأتى حذفا والغاء ولما قد يؤدى الى الانحراف أو اشاعة الفحشاء والمنكر .. وليست الفحشاء هى ارتكاب جريمة الزنا أو التحريض عليها فحسب .. ولكن الفحشاء هى كل خروج على شريعـة الحق سبحانه . فأولئك الذين يزينون للناس بالمسرحيات والروايات والتمثيليات مذهبا اجتماعيا يناقض الاسلام ويناهضه انما يروجون فحشاء ..

ونقول مثل هذا عن الداعين لمذاهب أخلاقية أو بدع تحررية هى من الانحـلال فى الصـــميم .. وحتى الذين يمالئون حاكما طاغية فيضعون من الأغانى والأناشيد والمصورات والتمثيليات ما يزيف حقيقته على الناس ، انما يروجون فاحشة .. وهكذا ..

فالرقابة على الفنون واجب الدولة عليها أن نوليه غاية اهتمامها سيما ونحن فى عصر حرب الفنون فيه أشد فتكا وأنفذ أثرا من الجيوش الجرارة • ولكن الى جانب هذه الرقابة العامة ينبغى أن تكون هناك رقابة خاصة • ونقصد بذلك رقابة النقاد على الفنون ـ أو رقابة الصحافة على الفنون ـ فالناقد رقيب وزيادة فعليه فى نقده أن يكون يقظا واعيا لأساليب الايهام والخداع ، وأن يكون يقظا واعيا لتبيان نواحي الضعف والتهافت ، وأن يكون صريحا جادا لا يخشى فى الحق لوما أو تهديدا •• حسبه قوله تبارك وتعالى : « **الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** » **(١٧٣ سورة آل عمران)** ••

نعم ، وتبقى الفنون دعوة الى الحق والخير والجمال ••

والفنانون دعاة الى الحق والخير والجمال ••

والرقباء حماة للحق والخير والجمال ••

مقياسهم وحدهم ومنهاجهم قوله تبارك وتعالى : « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** » **(١٢٥ سورة النحل)** ••

فهـــرس

الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٦٧٩/١٩٨٤

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٠٣٢٥ ـ ×

رحله وجدانية فى عالم الحق والخير
والجمال من خلال الرؤية الإسلامية
لجماليات الفنون ومقوماتها .

الكتاب القادم :

فلسفة المثل الشعبى

محمد ابراهيم أبو سنة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٣٥ قرشا